مقالات الأب سليم كوكا

(مجلة نوهرا ٢٠٠٢ - ٢٠٠٩)

مفهوم الميلاد

بقلم سليم موسى كوكة

تحل علينا كل سنة مناسبة ميلاد المسيح يسوع في مثل هذا الموسم وننتظر هذا اليوم بنوع من الخصوصية ولربما بمسرة وكأننا ننتظر عيد ميلاد أحد الأعزاء علينا لنحتفل معه ونفرح معه، متمنين له كل الخير في حياته وسنيه القادمة. أما مع ميلاد المسيح يسوع فنتمنى بعضنا لبعض الخير مهنئين بميلاد من نؤمن بعمق أنه مخلصنا. وتعود صلوات وتراتيل وإنجيل قصة الميلاد مثل كل سنة تتكرر في احتفالاتنا الدينية والطقسية لتضعنا في أجواء الميلاد التي تعودنا عليها منذ طفولتنا.

ولكن من جانب آخر نرى عالماً أخر لم يعد يعرف عن الميلاد سوى هذه المظاهر البراقة وأشكال الزينة التي باتت الشركات الكبرى تتسابق في إنتاجها وصناعتها لتملأ بها الأسواق والمحلات الكبرى قبل أشهر عديدة، وبذلك تصبح هذه المناسبة فرصة ذهبية لهولاء لزيادة أرباحهم أضعاف أضعاف أكثر من أي موسم آخر من السنة.... لا بل أصبح يقال اليوم عن موسم الميلاد باللغة العصرية بموسم (الانتعاش التجاري).

عبرة من الشاشة الصغيرة:

يقال أنه في أحد مواسم الميلاد في بداية التسعينات من القرن الماضي، وبينما كانت الأوضاع الأمنية متأزمة والأمور المعيشية أكثر تأزماً في الشرق الأوسط، قطع مقدم أحد البرامج التلفزيونية الشهيرة برنامجه الخاص بالترويج عن أشهر المصنوعات والمنتجات وأشكال الزينة في موسم الميلاد، في إحدى أهم القنوات الفضائية الأوربية ليفسح المجال لسيدة وقورة من إحدى الأقسام الخيرية في القناة لتعلن خبر هام للمشاهدين، قالت: "إيها المشاهدون الكرام، أعتذر جداً عن مقاطعة برنامجكم المفضل والممتع والرائع، والذي يسهل علينا جميعاً التبضع وشراء ما لذ وطاب لنا ولأطفالنا ولعوائلنا لهذا (عيد الكرسمس) وخاصة ونحن في الليلة قبل الأخيرة منه، ولكن لي خبر بسيط أود إعلانه وعسى أن ينال اهتمامكم ولو قليلاً:

"لقد تجرأ شاب وزوجته الشابة المعقود قرانهما قبل أقل من سنة، على قرع باب محطتنا التلفزيونية هذه، طالباً المساعدة لظروفهما المعيشية التعسة ولكونهما لا يملكان مسكناً لتضع الزوجة الشابة مولودها فيه، حيث قطعا مسافة طويلة قادمين من الشرق، ولكوننا نحن أيضاً في هذه الدار لا نملك مكاناً لهما فنحن لسنا بـ فندق، لذا نرجو بإلحاح لمن يرى أن باستطاعته استضافة هذه العائلة المسكينة ولو لليلتين فقط أو حتى ليلة واحدة، أو تقديم أي نوع من المساعدة مهما كانت الاتصال بالرقم (.....)، من الآن وحتى ظهر يوم غد".

وهنا انهت السيدة الخبر، ليعود المقدم لتكملة برنامجه، وتلته البرامج الأخرى، وفي ظهيرة اليوم التالي وخلال برنامج دعائي شهير آخر، سمح للسيدة نفسها الظهور مرة أخرى لتعلن: "نظراً لعدم ورود أي رد إيجابي من أي شخص أو جهة بخصوص إيواء أو مساعدة العائلة التي تم ذكرها يوم أمس، ونظراً للحالة الصحية الرديئة للزوجة الحامل يؤسفني أن أعلن عن وفاة الزوجة الشابة المدعوة (ماري) وهي تضع مولودها، وتوفي المولود الذي كان يحمل على ما يبدو ملامح شرقية - غربية بعد ساعات قليلة من ولادته... وتشرد والده المدعو (جوزيف) تاركاً جواز سفره وحقائبه في دار التلفزيون (واللبيب من الإشارة يفهم)".

مقدمة:

قد تخلق العبرة أعلاه نوعاً من الشعور بالتقصير في داخلنا وقد تفتح لنا المجال لأن نفهم مغزى موضوعنا هذا لنقول يكفينا كلاماً ولربما نفتخر أحياناً لكون إحدى أهم وسائل الأعلام (التلفاز) تتكلم وتنطق بهذا العمق الروحي والإنساني عن الميلاد بشكل غير مباشر، فهل يا ترى فهمنا مغزاها فعلاً فيقلب هذا الخبر مفاهيمنا التقليدية رأساً على عقب ويضعنا أمام محك الواقع الأمين للميلاد والذي من الضروري أن يسود احتفالاتنا وابتهاجنا بالعيد.

الميلاد والكتب:

بمجرد أن نعرف اسم الموضوع (الميلاد) نهمس مع أنفسنا بمعرفته على ظهر قلب، فقد حفظنا منذ طفولتنا قصة الميلاد وقبلها البشارة وصلوات الملائكة. ولكن الموضوع بمقدار ما هو معروف وبسيط في سرده القصصي (لا اللاهوتي)، إلا أننا نود أن نذكر بأن كل كتب العهد الجديد، على سبيل المثال، تذكر وتتحدث عن آلام وموت وصلب وقيامة المسيح بإسهاب.

. فالإنجيليون الأربعة يخصصون الفصول الثلاثة الأخيرة من كتبهم للكلام عن موت وصلب وقيامة المسيح، وظهوره ووصاياه الأخيرة للتلاميذ. وهكذا الحال بالنسبة للكتب الأخرى - أعمال الرسل، رسائل بولس، الرسائل العامة والرؤيا، فجميعها تكتب عن الآلام والموت ثم القيامة بشكل مستفيض، لا بل أنها بشارتها العظمى التي يعلنوها للعالم، لأنها تشكل ذروة رسالة يسوع، لأن الكنيسة نشأت من الأيمان العميق بقيامة يسوع ومن إخلاص المؤمنين للدينامية التي أحدثتها القيامة. أما عن ميلاد يسوع، فالأمر مختلف، وسنرى ذلك لاحقاً.

كاتبا رواية الميلاد:

لو القينا نظرة ولو بسيطة على كتب العهد الجديد، فسنرى ان ما كتب فيها عن ميلاد يسوع لا يتجاوز الجملة الواحدة في معظمها باستثناء ما جاء في بشارتي متي ولوقا. فمثلا نرى القديس مرقس يبدأ سلسلة روايته القصيرة بجملته المعروفة "بدء بشارة يسوع المسيح أبن الله.." (١:١-٢)، ثم ينتقل مباشرة إلى ما كتب في أسفار العهد القديم حول من سيعد الطريق أمام المسيح. أما يوحنا فيبدأ بشارته، بجملته اللاهوتية الشهيرة: "في البدء كان الكلمة..." (١:١). وهكذا الحال بالنسبة لكتاب أعمال الرسل، والرسائل العامة، ورسائل بولس الرسول، الذي نادراً ما كتب عن ولادة يسوع، سوى ما ذكره في رسالته: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله أبنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذي تحت الناموس لننال التبني" (غلا ٤:٤-٥).

ولكن متى ولوقا، هما اللذان انفردا في سرد رواية الميلاد فقط بشكل مطابق لجوهر الحدث ولكن مختلف في تفاصيل الحدث وروايته.

رواية متى:

يبدأ إنجيله بنسب يسوع الملوكي، مبتدءا من إبراهيم إلى داود (١٤ جيلاً) – من داود إلى الجلاء إلى بابل (١٤ جيلا) – ومن الجلاء وإلى المسيح (١٤ جيلاً). ولتفسير هذا الرقم ١٤ المكرر ثلاث مرات، يقترح المفسرون عدة شروح. منها:

1. قد يكون مجموعاً للقيمة العددية المنسوبة إلى الأحرف الصامتة الثلاثة المركب منها اسم داود (في اللغة العبرية والآرامية – د = ٤ (مكررة)، ر=٦) فيكون مجموعها (٤+٦+٤=١٤).

2. وفقاً للحسابات الرأيوية المعروفة والمتبعة في ذلك الزمان أتى يسوع في نهاية الأسبوع السادس (٣*١٤=٦*٧) من التاريخ المقدس الذي بدأ بإبراهيم، أي حين تمت الأزمنة، ولكن هذا الشرح مبني بشكل مصطنع على الرقم ٧، ولا يذكره متى بالرغم من دلالاته.

3. لاحظ متى حسب المفسرين أن النسب الوارد ذكره في سفر راعوث (٤:١٨-٢٢) والمكرر في أخبار الأول (٢:١٠-١٣) يحتوي على عشرة أسماء من فارص (جد بوعز الذي تزوج من راعوث الموابية) إلى داود أبن يسى أبن عوبيد أبن راعوث. فإذا أضيف إليه أبو فارص والآباء الثلاثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب كان المجموع ١٤ من إبراهيم إلى داود. وعمم متى هذا الرقم الأساسي على الحقبتين التاريخيتين التابعتين واهمل أسماء الملاك الثلاثة بين يورام وعوزيا فوجد بذلك إطاراً كتابياً لنسبه الملوكي.

ثم يمضي متى في سرد روايته فيقول فيها: " أما ميلاد يسوع المسيح فهكذا كان لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف....." ويمكن اختصار رواية متى بما يلي:

* ظهور الملاك ليوسف وبشارته بـ (عمانوئيل).
* ميلاد يسوع.
* قصة قدوم المجوس وسجودهم ليسوع ثم الهروب إلى مصر.
* استشهاد أطفال بيت لحم.
* الرجوع من مصر والإقامة في الناصرة (الجليل) بدلاً من بيت لحم خوفاً من ارخيلاوس الذي خلف أباه هيرودس.

وبهذا تنتهي رواية الميلاد عند متى والانقطاع لحين الظهور مع يوحنا المعمذان. فمثلاً متى يبدأ الفصل الثالث بجملة: "في تلك الأيام..." (٣:١)، وهذه العبارة تدل هنا في النص اليوناني على الانتقال إلى فقرة ليست لها صلة زمنية بما سبق. يتألف هذا النص من ثلاث فقرات تمهد لرواية حياة يسوع العلنية كما هو في مرقس.

رواية لوقا:

بعد مقدمته المشهورة، يوثق لنا الكثير من الحقائق التي تقصاها بإمعان، ويمكن اختصار روايته بما يلي:

* الملاك يبشر زكريا بيوحنا.
* بشارة الملاك لمريم العذراء.
* زيارة مريم لاليصابات.
* نشيد مريم.
* مولد يوحنا المعمذان.
* نشيد زكريا.
* ميلاد يسوع.
* بشارة الملائكة للرعاة، ونشيد الملائكة.
* ختان يسوع وتقدمته إلى الهيكل - نشيد سمعان الشيخ ونبواته - النبية حنة.
* يسوع في الهيكل وقد بلغ سن البلوغ الديني حسب الديانة اليهودية.

وتكلم لوقا عن حياة يسوع في الناصرة (لو ٢:٥١-٥٤). ويذكر عن خوف مريم العذراء ومار يوسف على الصبي يسوع، وحفظ مريم العذراء الكثير من الأمور في قلبها. وأخيراً، يذكر أن يسوع كان يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس. وتنتهي حياة يسوع الطفولية عند هذا الحد، ويبدأ الفصل الثالث من إنجيله مع يوحنا المعمذان في البرية.

فنلاحظ من الروايتين إن كل من لوقا ومتى ينفرد في سرد أمور لم يذكرها الآخر، فلولا متى لما عرفنا شيئاً عن المجوس القادمين من الشرق والرموز العظيمة التي تكتفن زيارتهم الملوكية ولا عن استشهاد أطفال بيت لحم والهروب إلى مصر. من ناحية أخرى، لولا لوقا لما استمتعنا بنشيد زكريا ومريم الرائعان، ولا رنت آذاننا بأنشودة الملائكة: "المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وللناس الذين بهم المسرة" (لو ٢:١٤-١٧).

الميلاد والعلاقة الجديدة مع الإنسان:

كل من يقرأ الروايتين يتعجب لكل الأمور فيها ولكن يُعتقد أن هناك أمور أكثر تماساً مع الجوهر الإلهي، فليس الأهم أن نعرف بالضبط متى ولد المسيح؟ بالرغم من أنه شيء حسن أن نعرف هذه المعلومة، وللعلم فأننا متأخرون عن تاريخ الميلاد الجاري بحوالي ٥-٦ سنوات. فإذا كنا نحن الآن في سنة ٢٠٠١، فنحن في حوالي ٢٠٠٦ أو ٢٠٠٧م. حسب المؤرخ يوسيفيوس وآخرون معتمدين على التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة اعتبروا السيد المسيح قد ولد في سنة ٤٠٠٤ بحساب ذلك التقويم، وهنالك دراسات كثيرة حول تاريخية الحدث لا مجال لذكرها هنا، وإنما الأهم هو كيفية اكتمال مهمة ورسالة الميلاد في موضعها أي (كيف يكون الميلاد تدريباً لنا لكي نتعرف على الله الذي أصبح بيننا). هنالك أمور كثيرة تشدنا إلى هذه القصة ومنها (الرعاة) أول المبشرين، ولوقا الذي يركز على

البشائر والأناشيد يريد أن يقول أن الرعاة مثل الرسل الأوائل أنهم حملة الإنجيل الأول، أما الإشارة إلى داود في النص فتشير إلى أن داود كان أيضاً راعياً مثلهم. ونفهم من هذا أن لوقا يحب الفقراء بصورة خاصة بعكس ربابنة اليهود آنذاك الذين ينتظرون مجيء مخلص وولادته في قصورهم الملكية. وكانوا (أي الربابنة) يحتقرون ويقسون على الرعاة، لماذا؟ لأن مهنة الراعي لا تسمح لهم بمراجعة المجمع أو الهيكل أو التعلم على أيديهم دقائق الشريعة ووصاياها. فالإنجيلي يرى أن الرعاة هؤلاء الصغار الذين شاء الأب أن يعطيهم الملكوت ليس فيهم أي تكبر أو انغلاق على نعمته وعطيته. فالله ينظر من حيث لا يتصور الإنسان، وفي مولد يسوع هذا يفتح الله عصراً جديداً من العلاقة مع الإنسان مهما كان موقعه في محيطه أو مجتمعه، وهنا يريد الله أن تكون هذه العلاقة عادية وبسيطة، لا بل طبيعية. فما أكثر عادية من طفل يولد وما أضعف منه وما أحقر حالته وهو مُقمط في مذود حيث تأكل الحيوانات. لكن هذه العلاقة مهما تكن عادية وبسيطة تكفي لتؤكد للذين أقدموا إلى رؤية الطفل أنهم ليسوا في حلم. فالطفل واقع ومستقبل وأمل. فأن كان الإنسان أهم من كل شيء لأنه هدف الله، فالطفل هدف مضاعف لأنه أيضاً هدف الإنسان وهدف ذويه ومجتمعه. والطفل هنا أيضاً كشف جديد.. أنه مخلص وفقره هو العلامة، فمن يفهم في فقره هذا حضور الله ينال الخلاص. هكذا سيفعل الرسل يوم ينطلقون للبشارة من دون مزود ولا نقود، بدون سيف ولا قوة.. هكذا أيضاً تبدو المغارة والمذود في عين المؤمنين علامة حية على حضور الله المحرر من العقلية التي تنتظر منه علامات باهرة وقاهرة كما كان اليهود ينتظرون منه ذلك. فأفكار الله ليست كأفكار البشر وواقعه يختلف عن أحلامهم... وتأكيداً لرسالة الملاك يظهر جمهور من الجند السماويين.. ولهم هنا دور ليتورجي، وهذا الدور يقره العهد القديم للملائكة (مز ٢٩،١٠٣، ١٤٨، أش ٦، أيوب ٣٨...) فالنشيد يعلن مجد الله المتعالي وهذا النشيد سيعلنه التلاميذ يوم السعانين: (عند دخول يسوع أورشليم وقد استولى الفرح على التلاميذ بعد رؤيتهم كل المعجزات وأصبحوا يسبحون الله بأعلى صوتهم قائلين: "تبارك الآتي، الملك باسم الرب، السلام في السماء والمجد في العلى" لو ٩:٣٧-٣٨). فسلام اليوم هو سلام دائم وهو حرية معطاة للجميع وخاصة للفقراء. ويكمل الإنجيل قائلاً: "وجاء الرعاة مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعاً في مذود" (لو ٢:١٦). رأوا فعلاً ما قاله لهم الملاك طفلا مولوداً وهذا أيضاً ما رآه الملوك. حكماء الشرق المجوس، فقد ركع الرعاة والملوك أمام المذود وبين الحيوانات، الملوك قدموا هداياهم الثمينة أما الرعاة فقدموا قلوبهم البسيطة هدية للمولود.. وليفهم الفريقان من تلك الساعة أن الله أتى إليهم من حيث لم يكونوا يتوقعون وأن السلام والفرح اللذان بشر بهما الملاك ليسا محصوران بطبقة معينة من البشر.

خاتمة:

نقول في قانون الأيمان أن يسوع المولود من مريم

العذراء حبل به من الروح القدس، لا شك أن هذا القول حجرة عثرة للعقل، وقد يتهمنا الكثيرون بالسذاجة. فكيف لا يستاء عقلنا من فكرة الحبل بإنسان صغير بدون تدخل علاقة زوجية عادية؟ وكيف تكون عذراء أماً في آن واحد؟ ورغم ذاك، هذا ما يجرأ المسيحيون على الاعتراف به كبند جوهري من بنود أيمانهم كما تجرأوا على الاعتراف بقيامة المسيح.. فهي بنفس المستوى.

ليست بتولية مريم أساس بنوة يسوع الإلهية وليس يسوع نصف إله ونصف إنسان بل هو إله حق وإنسان حق. أي كله إله وكله إنسان. يرى الكاردينال رتزنغر (كل اللاهوتيين لا يشاركونه هذا الرأي): "أن عقيدة ألوهية يسوع لا تكون موضوع خلاف لو كان يسوع مولوداً من زواج عادي، لو حبل به كما حبل بنا جميعاً". قد يكون على حق، بمعنى أن الرسل آمنوا بألوهية يسوع بفضل القيامة أي بمعزل عن الحبل البتولي، فالقيامة كانت هذا الرأي: الكاشف الحقيقي ولا يمكن أن نرى ولادة يسوع العجائبية إلا بمنظارها. وهذه ليست بسذاجة. صحيح أن في الإنجيل سذاجة، وهي ما يسميها الرسول بولس: "حماقة" ولكنها سذاجة من نوع خاص فهي تختلف عن البلادة والبلاهة.. سذاجة الإنجيل هي سذاجة الأطفال تحتاج إلى تدريب خاص وللوصول إليها نحتاج إلى تدريب طويل وإلى نعمة خاصة. الساذج حسب الإنجيل ليس جاهلاً أنه عالم عارف بقلبه.. طوبى لأنقياء القلوب (السذج بقلبهم) لأنهم يعاينون الله، أي يفهمون لماذا يفعل الله كل هذا، يفهمون معنى أن يولد الإنسان عن حب ويموت عن حب. سذج الإنجيل وحدهم يفهمون معنى أن يصير الإنسان طفلاً، ويفهمون معنى التعجب، والتعجب صفة تتجدد كل سنة بنفس القوة في موسم الميلاد كلما وقفنا أمام العشرات من المغارات في كل زاوية وموقع ونظرنا إلى أشجار الزينة التي تملأ الشوارع لنكتشف من خلالها سر الفرح الإلهي الذي ينكشف للإنسان تدريجياً وليعطيه (أي الله يعطي للإنسان) فرصة جديدة لمفهوم العلاقة بينهما من خلال ميلاد الله بين البشر.. فمن لا يتعجب، إما يهرب أو يبقى ويشك متصوراً أنه أعلى من كل شيء، أو أنه يعرف كل شيء.. فمفهوم الميلاد أذن هو أن نقبل عطية الله ونعمته من خلال التغيير الذي يتوجب أن يُحدثه في حياتنا ونظرتنا إلى الآخرين وفي أفكارنا بشكل إيجابي يوازي علاقتنا ببعدها العمودي أي (مع الله) ليصبح تدريباً لنا على اكتشاف حضوره المتواضع والمفرح والجلي بيننا، وببعدها الأفقي أي مع (أخينا الإنسان) فنقبله مثلما هو كائن وليس كما نريد نحن أن يكون.

المصادر:

1- الكتاب المقدس، الجواشي، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١.

2- الفرح والأيمان بهجة الحياة، الأب فرانسوا فاريون اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨.

3- التثقيف الدائم في رهبنة القديس عبد الأحد - مراحل النضوج الدومنيكي - الجزء الرابع، مجموعة محاضرات (محاضرة الأب يوسف توما)، الأخوة الدومنيكية العلمانية في العراق، بغداد، ١٩٩٨.

4- ميلاد يسوع المسيح، الأب أنطوان يعقوب، منشورات القديس جاورجيوس، ١٩٨٢.

5- Jesus The Man, Barbara Thiering - 1992 - A Doublday - Australia

مفهوم القيامة ثم الصعود

بقلم سليم موسى كوكه

تناولنا في العدد الثامن عشر من مجلة (نوهرا) موضوع "مفهوم الميلاد" مستغلين آنذاك موسم الميلاد، وذكرنا فيه أن ما جاء في كتب العهد الجديد عن ميلاد يسوع "لا يتجاوز الجملة الواحدة في معظمها باستثناء ما جاء في بشارتي متي ولوقا" نوهرا، ص ١٠، عدد ١٨، بينما كل كتب العهد الجديد تذكر وتتحدث عن آلام وموت وصلب وقيامة المسيح بإسهاب، فالإنجيليون الأربعة يخصصون الفصول الثلاثة الأخيرة من كتبهم للكلام عن موت وصلب وقيامة المسيح وظهوره ووصاياه الأخيرة للتلاميذ، وهكذا الحال بالنسبة للكتب الأخرى – أعمال الرسل، رسائل بولس، الرسائل العامة، الرؤيا، فجميعها تكتب عن الآلام والموت وثم القيامة بشكل مستفيض، لا بل أنها بشارتها العظمى التي يعلنوها للعالم، لأنها تشكل ذروة رسالة يسوع، لأن الكنيسة نشأت من الأيمان العميق بقيامة المسيح ومن إخلاص المؤمنين للدينامية التي أحدثتها القيامة. نوهرا، ص٩، عدد ١٨.

وفي هذا العدد نستغل موسم القيامة باعتبار أننا لازلنا ضمنه حسب طقسنا الكلداني العريق لحين عيد الصعود... لنفتح ملف القيامة وننظر إلى مكامنه من مصبة نظر قد تكون غريبة نوعاً ما للقارئ الكريم. ولنا الرجاء أن يكون القصد مفهوماً لتعميق مفهوم القيامة بشكل أكثر وعياً.

الأيمان والواقع التاريخي:

تعتبر اليوم (مسألة) قيامة المسيح أهم مشكلة أو سر.. إذا صدقنا القديس بولس حين يقول لنا: "وإن كان المسيح لم يقم، فأيماننا باطل لا أساس له" (١ قور ١٥: ٤). أنه لمن السهل أن نصدق ونؤمن بحدوث الحرب العالمية الأولى والثانية، أو أحداث ١١ أيلول وما عقب ذلك وحرب الخليج وتشتتنا بعد ذلك، أو موت شخص ما لأنها جميعاً وقائع تاريخية، مبنية على أسس ملموسة بشكل أو بآخر. لكن هل يجب أن نقول أن قيامة المسيح هي واقع تاريخي على الوجه نفسه؟

من السهل أن يأتي الجواب تقليدياً ((**نعم**)) من المتدين، الذي قد يتحاشى أن يوقع نفسه في معمعة الشك بما تربى عليه (حسب اعتقاده)، ولكن اللاهوتيين لا يرون أي ضرر بجوهر الأيمان إذا جاء الجواب ((**لا**)) لأن القيامة هي في إناء واحد وبدون انقسام واقع تاريخي للأيمان وبوجه آلامه حدث للأيمان ينطوي على واقع تاريخي... فهم يريدون أن يضيفون إلى الحدث التاريخي المجرد بعداً أكثر عمقاً وليس التشكيك فيه إطلاقاً.

ما هو تاريخي هو شهادة الرسل: أناس كانوا قد عاشوا مع يسوع وعدّوه المشيح، أعلنوا أنهم رأوه حياً بعد موته على الصليب وهذه الشهادة التي هي تاريخية تنطوي على شيء أبعد من الحدث التاريخي المجرد، وهو أن القيامة، بصفتها انتقالاً من الموت إلى الحياة الأبدية، لا يمكن أن تكون حقيقية إلاّ للأيمان أو بالأيمان.

لمم يكن الرسل شهوداً لذلك الانتقال ولا يمكن أن يكونوا حتى لو كانوا قد ضلوا في قبر يسوع حتى صباح الفصح، وذلك بأن القيامة بالنسبة ((إلى هذا العالم))، حيث يمكن التثبت من الأشياء، هي مجرد اختفاء... لم يعد جسد يسوع القائم من الموت سينتمي إلى عالمنا الطبيعي القائم على المكان والزمان... وبناءاً على ذلك يستحيل التثبت من الانتقال من الموت إلى الحياة الأبدية...

فلا يمكن تشبيه قيامة يسوع على الإطلاق بإحياء جثة حتى في حالة لعازر.. ليست قيامة لعازر انتقالاً من الموت إلى الحياة الأبدية (إلى عالم الله) بل عودة إلى الحياة كما كانت من قبل الموت، عاد لعازر إلى الحياة كما كانت حياته قبل موته...

حينما نُعلم الأطفال في التعليم المسيحي، نقول لهم أن لعازر عند خروجه من القبر ربما عطس أو سعل وتبين حالة الطقس.. ولم يعفَ من الأمراض الجسدية... والموت مرة ثانية.. فليس هناك أي شيء مشترك بين ما يسمى قيامة لعازر (وهي بالأحرى معجزة أحياء جثة) وقيامة يسوع...

ما يمكن أن نعده تاريخياً هو ما كان للرسل موضع إثبات حالة حسية (للحواس) والحال أن ما تثبتوا منه بحواسهم وما كان لهم موضع ثبات حالة حسية يقتصر على آمرين: القبر الفارغ من جهة ومن جهة أخرى لا نقول ظهور المسيح القائم من الموت. بل ظهور أحد لهم بدا لهم من دون أن يعرفوا أنه يسوع حي، فلو عرفوا من ساعتهم أنه يسوع حي لوجب القول أننا أمام جثة أُعيدت إلى الحياة.. لقد تثبت للرسل أولاً من حضور أحد.. حضور بستاني لمريم، وحضور مسافر لتلميذي عماوس.. وظهوره لتلاميذه مجتمعين بدون توما ثم مع توما وفي كل مرة نرى يسوع هو المبادر ليكشف نفسه للتلاميذ، وبفعل الأيمان عرفوا بعد ذلك أن ذلك الإنسان هو الذي عاشوا معه مدة ثلاثة سنوات والذي كانوا تلاميذه..

إذاً قد نخطأ إن تصورنا أن الرسل تثبتوا (إثبات حالة بالحواس -تاريخي إذا) من أن هذا الإنسان الذي بدا لهم يسوع الذي عرفوه قبل موته على الصليب، وأنهم آمنوا بعد ذلك بالقائم من الموت فأن الروايات الإنجيلية على عكس هذا التصور:

- شعروا بوجود أحد، لكنهم لم يعرفوه في البداية.
- من هذا الشعور انتقلوا إلى الأيمان بواسطة التفكير في وجودهم السابق مع يسوع تنيره الآن الكتب المقدسة التي فسرها لهم والرسالة التي عهد إليهم بها.

فنحن أمام الأمور التالية:

1. تثبتوا من حضور أحد يظهر لهم.
2. أدركوا معنى أقوال يسوع القديمة وسيرته القديمة والنبوات المختصة بموته.
3. عرفوا (بالايمان) إن ذلك الإنسان هو يسوع (حي) وهو وجّههم من ساعتها انطلاقاً من ماضيهم، نحو المستقبل، عاهداً إليهم برسالة، رسالة إنشاء الكنيسة، لا على غرار ما كانوا يتوقعون من يسوع (ملكوت أرضي)، بل أصبح نظرهم إلى السماء شاخصاً أي هناك تغيير في العقلية رأساً على عقب.

القبر الفارغ:

ما هي العلامات التي ظهر بها يسوع القائم من الموت؟

يجيب الإنجيل: هناك علامتان، القبر الفارغ والأخرى أكثر إيجابية ظهور (ترائي) يسوع للرسل...

يوضح اللاهوتيون أن اكتشاف القبر الفارغ كما رواه لوقا لم يكن له دور هام في ولادة إيمان الرسل، لا بل قد أفزعهم ذلك فأن القبر الفارغ لا يدل وحده على القيامة.. ففي أقدم صيغة وردت في العهد الجديد (حوالي سنة ٥٠) يؤكد القديس بولس: "أن الله أقام يسوع من بين الأموات" (أفس ١: ٩)، ولا يذكر القبر، نعم، لقد تم ذكر القبر الفارغ في الإنجيل لكنه ليس جزءاً من رسالة الرسل الأساسية، هذا لا يعني أن القبر الفارغ ليس هو حقيقة ثابتة، ولكن فصل هذا الأمر عن الإطار الذي ورد فيه أي عن شهادة الرسل في شأن الظهورات يبقى هناك أمر قد يستطيع المؤرخ أن يشك في صوابه أن اعتبرنا هذا الأمر في حد ذاته بعد أن مضى عليه آلفا سنة وأكثر...

يؤكد اللاهوتيون على أن القبر الفارغ لا تكون له أهمية تاريخية كبرى وإن كان وجوده ثابتاً ولا يمكن التأكد من (تاريخية) الأحداث ما لم تكن على شيء من الأهمية وكانت مندمجة في مجموعة تعد تاريخية حسب علماء التاريخ. فلا عجب أن يبقى المؤرخ العصري كثير التحفظ في أمر اكتشاف القبر الفارغ.. ولن يخرج من تحفظه كمؤرخ ما لم يعترف إلى جانب ذلك بقيمة شهادة الرسل في أمر الظهورات (الترائيات).

الظهورات:

أما الظهورات فلا يرى كيف يمكن إنكارها، وإلاّ وشرط التخلي عن افتراض الخداع المدبّر لأصبح الدين المسيحي أمر لا يمكن تبريره، ولكن قد يمضي البعض لخلق مشكلة تتعلق بمعنى هذا الواقع ومغزاه. فكثيراً ما يصطدم التفكير هنا بحكم سابق يقول بأن كل تراء (ظهور) لا يمكن أن يكون إلاّ تخيلاً ذاتياً ومرضياً خالياً من كل قيمة موضوعية، ومنهم من ينسب ذلك إلى الإيحاء الذاتي (باراسايكولوجي).

في هذا الحال يبقى على هؤلاء أن يفهموا كيف أن إيمان الرسل الذي كان ضعيفاً جداً قبل الخيبة التي أحدثها موت يسوع استطاع أن يعود إلى الحياة وكله حيوية وحماس وكان التبشير بيسوع القائم من بين الأموات يشكل خطراً لهم أكبر من خطر الاعتراف بالتلمذ له في أثناء الدعوى التي أُقيمت عليه، والحال أن الرسل لم يجرأوا في أثناء الدعوة على الاعتراف بأنه معلمهم مع أن ذلك كان أقل صعوبة عليهم من الجرأة على التبشير بأن يسوع هذا نفسه قام من الموت، فكانت الصعوبة بعد رحيله أكبر بكثير من الثقة به قبله وبلغت حد التهلل والاستشهاد.

ولكن تلك الملاحظة هي غير حاسمة (بالرغم من قوتها) إن اقتصرنا عليها فهناك مخرج وجود ظواهر فردية وجماعية في شأن بقاء بعض الأبطال الذين قتلوا في الحرب.. يبدو هذا الأمر ثابتاً عند سكان ذوي نفسية بدائية ويظهر هذا البقاء لا بمعنى أن البطل هاجر إلى مثوى الأموات بل بمعنى أنه لا يزال ينتمي إلى عالمنا وإن بوجه غير منظور، ولا يزال يقوم بعمل تاريخي..

وقد يثير مثل هذا الاعتقاد عند الشعوب البدائية (ولا ننسى مجتمع الرسل) حماساً في الإخلاص للقضية التي جسدها ذلك البطل... فلا بد من الفطنة ولاسيما والكلام يدور على أساس (الأيمان) بالقضية الأكثر سمواً التي عهدها يسوع للتلاميذ..

فمع إخلاص الرسل كانت هناك ترائيات ذات (قيمة موضوعية) والتي نعني بها أن الترائيات لم تكن من تركيب الرسل وحده، بل هي واقعية بمعنى أن الرسل رأوا القائم من الموت بحكم مبادرة لم تصدر عنهم بل عنه، في حالة التخيل تصدر المبادرة عن الذات العارفة.

أما في حالة الظهورات فأن المبادرة لا تصدر عن الرسل بل عن المسيح، وبكلمات أخرى، لم يَرَ الرسل يسوع إلاّ لأن يسوع أظهر نفسه، إذاً هناك (اختبار) واختبار طريف وفريد من نوعه على الإطلاق في التاريخ: أدركوا أن هناك اتصالاً بين حياة يسوع الزائلة ووجوده كقائم من الموت.

وأصبح إيمانهم يأخذ بعداً أوسع تدريجياً ليصل ذروته إلى يوم العنصرة.. وعرف الرسل أن يسوع يريدهم أن يبدأوا عهداً جديداً هو عهد القيامة، فلا رجوع إلى الوراء بل الانطلاق إلى كل المسكونة بقوة الروح القدس ويتكلمون كل اللغات، أي أنه لم يعد هناك حاجز يفصلهم عن العالم لا اللغة ولا الزمان ولا المكان.

نحن اليوم والقيامة:

كثيراً ما تشبه حالتنا حالة الرسل قبل أن يعرفوا يسوع في فصل الأيمان، فالعلامات: القبر الفارغ والترائيات أنهُ أفرغناها من معناها اتجهت نحو التفتت. نعم أن هناك اتفاق جازم بين المؤمن وغير المؤمن على أن هناك معطى أدبي للقبر الفارغ والترائيات فلقد وردت في الكتب، ولكن هذا المعطى الأدبي أنه انفصل عن معناه كاد أن يفرغ من نفسه ويفقد مقدرته على الثبات على القاعدة الأساسية ويتلائم مع كل العصور والتقلبات، ولهذا يذهب اللاهوتيون إلى التحذير من المبالغة في قيمة المعطى التاريخي، وهذا ما يتعرض له المؤمن:

مفهوم القيامة

فقد نفكر وكما لو كان المعنى يُدرك مباشرة في المعطى التاريخي وكما لو كان القبر الفارغ في حد ذاته برهاناً على القيامة، وكما لو كانت الظهورات تمكن من معرفة يسوع في اللحظة من دون الحاجة إلى فعل الأيمان الذي يُبنى تدريجياً.

أن فعل الأيمان وحده يشق الطريق إلى المعنى وهذا المعنى هو أن الموت قد غُلب أو أن المحبة أقوى من الموت، فأقوى مطاليب الإنسان هي أن يحيا إلى الأبد والقيامة تقول لنا سنحيا إلى الأبد ولذلك نؤمن...

وحين نؤمن تنفتح عيوننا (كتلميذا عماوس) وندرك معنى السماء التي هي لقاء حميم بين الله والإنسان... وفي صعود يسوع اكتشاف للإنسان على أن السماء هي مستقبله.. مستقبل البشرية..

والصعود هو أيضاً بمعنى يجب إدراكه ذهاب المسيح الضروري وهو ذهاب يبدو بالأحرى وجهاً جديداً لوجوده، لم يعد هذا الوجود خارجياً أو محدداً بين مجموعة من الإخلاص وفي مكان ما بل أصبح باطنياً شاملاً، فلو لم يصعد يسوع السماء لما زال بيننا في وسطنا وإلى جانبنا ولكنه خارجاً عنا..

لقد كتب القديس بولس:

"فذلك الذي نزل هو نفسهُ الذي صَعِدَ إلى ما فوق السماوات كُلها ليملأ كل شيء" (أفس ٤:١٠).

فصعود يسوع هو احترام لحريتنا، فلم يعد في إمكاننا عند اتخاذ القرارات أن نسأله لكي نعرف منه ما يجب عمله، أجل يمكننا لا بل يجب علينا أن نسأل في الصلاة ذلك الذي هو فينا والذي هو نحن أكثر من أنفسنا لكنه لا يجيبنا بتجريدنا من مسؤولية قراراتنا وأعمالنا..

فالروح القدس لا يملي القرارات بل يوحي بها وعلينا أن نهضم العطية. لقد كتب أحد اللاهوتيين في قول يسوع: "خير لكم أن أمضي، فأن لم أمضي لا يأتيكم الروح القدس" (يو ٧:١٦)، كتب: "يجب أن أُبعد عنكم وجهي لكي تكون لكم نفسي".

الرسل أناس كانوا قد عاشوا مع يسوع وعدّوه المشيح، أعلنوا أنهم رأوه حياً بعد موته على الصليب

المصادر:

1- الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١.

2- فرح الأيمان بهجة الحياة، الأب فرانسوا فاريون اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨.

3- No Turning Back, Bian B. Grenier, St. Paul Publication, NSW

4 - نوهرا، العدد ١٨، آذار، ٢٠٠٢.

الصلاة والافخارستيا

بقلم سليم كوكه

قد يبدو هذا الموضوع في أيامنا تنازلاً للعادة الجارية. لا يحسن أن تكون الصلاة قضية عادة جارية. لكننا نعرف قانون (رقّاص التاريخ) الذي سماه أحدهم: قانون الجنون المزدوج: "إذا ذهب الناس بجنون في اتجاه ذهبوا بعد ذلك بجنون إلى اتجاه معاكس". وقد يستغرب البعض أن يكون موضوعاً كهذا معداً من قبل علماني وليس كاهناً أو راهباً... المفكرون غالباً ما يتكلمون عن: "جيل الالتزام وخدمة المجتمع"... يعني كما يقول الكثيرون (أنا إنسان ملتزم، صادق، أعمل بجد، أخدم... أعطي الصدقات...) كل هذا بفعل دافع من ضميري ليس إلاّ... (الكلام هنا عن تلك الفئة التي لها مبدأ في الحياة وليس تلك الطبقة الأغلبية التي تعيش حياة اللامبالاة...

هؤلاء الناس (الجماعة الأولى) ذوي مطاليب الالتزام في رجوع إلى الوراء. أي هناك عودة إلى الصلاة، أي ولاء الناس الذين يتأرجحون بين البعد الأفقي والبعد العمودي. بعد جيل بالغ في إهمال البعد العمودي (أي الصلة بالله)... أخذ الناس يعودون إليه... وهذا شيء مفرح ولكن من المؤسف أن يتم كل ذلك في حركة تأرجحية. يجب الجمع بين البعد الأفقي والبعد العمودي، ويجب أن يساير التوسيع في الزمنيات تركيز في الروحانيات...

فأن الصلاة بدون الالتزام ليست أفضل من الالتزام بدون الصلاة. جميل أن نرى هذا الجيل الذي يعود فيكتشف أهمية الصلاة. وعلينا أن نبتهج بهذا الأمر. فلا ينتهي بسبب ذلك ما يقتضيه الالتزام والعمل والقيام بالمهمة البشرية...

كيف نصلي:

هل تصب الأزمة الحالية التي تمر بها الكنيسة في تجديد التصوّف؟ هذه أمنيتنا لا سيما وأن جميع الأزمات التي مر بها تاريخ الكنيسة صبّت في تجديد التصوف بكل معنى الكلمة. هذا كان شأن عصر النهضة، فلقد أزدهر التصوّف ازدهاراً رائعاً في القرن السابع عشر. وقد نكون مقبلين على تجديد من تلك التجديدات. المشكلة هي أن يكون هذا التجديد أصلاً أو أن لا يكون. سنقول بأي شروط يكون...

نوضح قبل كل شيء، أن الصلاة عنصر أساسي من عناصر الحياة الروحية، لكنها ليست الحياة الروحية كلها. كلمة (روحي) تعني (مع الروح القدس) أي الحياة الروحية بدون أي زيادة، لكنها تُعاش مع الروح القدس وذلك الأقنوم الذي تولى العالم وتولانا منذ أن ودعنا إياه يسوع في يوم العنصرة ولحد الآن... ولكنه قليلاً ما نتذكره للأسف.

التصوف – الصوفية **Mystique**: اختبار الله من خلال السرّ الذي يكشفه لنا، أو الأسرار (العلامات) التي تأتينا في شأنه، وهو بالمعنى التوسعي، في أيامنا، كل اختبار عميق لله، وكل مذهب خاص بهذا الاختبار. وعندما يصير مذهباً دينياً يشدّد على الاتحاد الحميم بالله، أو الاستعداد الباطني للسعي وراءه. وإن كان التصوف موجوداً في ديانات عدة – وقد يكون هامشياً – فهو عند المسيحيين خبرة شخصية عميقة، ووعي خصوصية الفرد بعينه. التصوف خبرة اقتراب من الله ولكنه أيضاً خبرة بُعد الخليقة عن خالقها وجاءت التسمية (صوفي) لأن ممارسي هذه الروحية كانوا يلبسون الصوف في أيامها وخصوصاً في الشرق وبالأخص في بلاد ما بين النهرين.

يقول الكثيرون منا: "همومي وأعمالي كثيرة جداً، حتى أني لا أجد المتسع من الوقت لتكون لي حياة روحية!!! لنقل بالأحرى أن أعمالنا كثيرة حتى أننا لا نجد المتسع من الوقت للصلاة، ولا نقول أن نشاطنا البشري غريب عن حياتنا الروحية... أن يوحنا الصليبي (أحد القديسين المعروفين في الصلاة) يقول لنا أننا: "سنُدان على المحبة". والحال أن المحبة نعيشها في القيام بمهمتنا، سواء كانت عائلية أم تربوية، أو شملت تلك الالتزامات المتعددة في المجالات الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية أو السياسية وبكلمة واحدة في الحياة كلها.

صيغ الصلاة الثلاث:

الإنجيل صريح إلى أقصى حد في أمر الصلاة. أكتفي بلفت النظر إلى جملتين أختارهما من بين مختلف أقوال يسوع في الصلاة: "يجب المداومة على الصلاة من غير ملل" (لو ١٠:١)، "وإذا صليت، فأدخل حجرتك وأغلق عليها بابها" (متى ٦:٦). أن الروح القدس نفسه هو الذي يهدي إلى البرية والذي يجمع الناس في جماعة واحدة أخوية. من أول الكتاب المقدس إلى آخره، تروي لازمة موضوع البرية. وهي تعني العزلة والصمت وتجميع الفكر وتركيزه، إلى جانب العُري الباطني والجفاف والتكلّس والجوع والتعطش إلى الله. وأما ما يختص بالجماعة الأخوية، فالعنصرة توحي بأن الروح القدس يجمع البشر على عكس برج بابل. برج بابل هو تشتت الشعوب في اختلاط اللغات، وأما العنصرة فهي تجمع الشعوب في فهم اللغات.

نجد في تقليد الحياة الرهبانية ثلاث صيغ للصلاة:

1. قبل كل شيء، الافخارستيا وهي **الصلاة التامة، الصلاة الكاملة**. إذ إنها امتداد لصلاة المسيح نفسها، وحول صلاة الافخارستيا، صلاة الفرض الإلهي كإكليل لآليء فاخرة تحيط بالماس. فهناك متوحدون ومتوحدات ورهبان وراهبات وكهنة يقيمون تلك الصلاة، صلاة الفرض الإلهي الطقسية {(كصلاة الصبرا (الصباح) والرمشا (المساء)}.

2. **الصلاة الخاصة** أو في السر، أي ما يسمونه الصلاة الباطنية وهي ذلك الحديث الخاص إلى الله. أنها الصلاة التي نمتثل بها كما يأمر الإنجيل، حين يوصيننا بأن (ندخل حجرتنا ونغلق علينا بابها ونصلي إلى الأب الذي في الخفية) من الواضح أن الحجرة هي رمز. فالحجرة الحقيقية هي الحجرة الباطنية في أعماق نفوسنا.

3. **الصلاة العادية**، الصلاة الدائمة، الصلاة المتعلقة في العمل الذي يقوم به الإنسان من غير أن يعرف أنه يصلي. هذه الصيغة تلبي طلب يسوع في قوله: "يجب المداومة على الصلاة من غير ملل". لو كان المقصود بها الصلاة بحصر المعنى، الصلاة التي يتوقف فيها الإنسان عن العمل، لما كنا حملنا توصية الإنجيل على محمل الجد. يطلب الرب منّا ألاّ ينقطع الله عن أفق حياتنا، عن وعي أو شبه وعي. تشبه هذه الصلاة لعب الولد الذي يعلم بأن أمه قريبة، ومع أنه ومع أنه لا ينظر إليها، يعلم بأنها هنا وبأنه، إن ابتعدت، انتبه للأمر على الفور. وهناك مدارس خاصة لتعليم أنواع الصلاة وخاصة الباطنية والدائمة، وكيفية التشدد والاستفادة من خبرات آباء الكنيسة المعروفين في الصلاة وطرقها الخاصة في البحث الباطني عن الله. وهناك آباء ورهبانيات مختصين في هذا الحقل يمكن الاستفادة من خبراتهم.

صعوبات الصلاة في السر:

أن ميلنا الطبيعي إلى البحث عن السهولة غالباً ما يحملنا على اختصار صيغة الصلاة الثانية. وهي الصلاة التي نتوقف فيها عن العمل وعن النشاط العادي، والتي تستغرق بضع دقائق. قلنا بضع دقائق، على افتراض أننا نقصد أكثرية من العلمانيين، علماً بأن الصلاة الطويلة عادة ما تنسب إلى الرهبان...

الناس يمارسون الافخارستيا (القداس) بأمانة، ويظنون أنهم يمارسون (الصلاة الدائمة أيضاً) لكنهم يظنون أن بإمكانهم الاستغناء عن ممارسة الصلاة العقلية أو الخاصة... يخشى أن يبقى (الافخارستيا) سطحياً وأن لا تصبح الليتورجية التي تقوم أمامنا ليتورجيا في قلوبنا. فيخشى أن تكون الجماعة المصلية جماعة سطحية وبالتالي جماعة لا تدوم خاصة الشباب منهم فيرون كل شيء غير مغذي فيبتعدون... (يا ريتنا يصار إلى إحصائية لعدد الناس الذين يدخلون إلى الكنيسة ومن ثم يتركون لأن البناء يكون على أساس غير عميق.. ويكون هناك سوء في التغذية فيتركون...). هذا هو الخطر الذي يتعرّض أمامنا. أما الصلاة العادية، فيُخشى كثيراً أن تتدهور من دون أن نشعر، إن لم يكن إلى جانب ما نسميه أوقاتاً مكثفة للصلاة. فالنظر إلى سياق حياتنا يقل يوماً بعد يوم والقرارات التي علينا اتخاذها (وهي جوهر حياتنا، فأنها محامية حريتنا وأننا نبني كياننا الأبدي بكبير قدرتنا وصغيرها) لا تعود تُتخذ مع الله وفي سبيل الله، بل بالنسبة إلى أنفسنا وفي سبيلها (في السابق كان يُقال فكر في هذا الأمر – صلي ثم عد قل لي رأيك).

لماذا غالباً نهمل الحديث الخاص إلى الله الذي يستغرق بعض الوقت؟ أعتقد بأن السبب هو أننا نضجر منه، لا أقل ولا أكثر. وإذا أردنا أن نستعمل كلمات أسمى، قلنا إن الإنسان يجب أن يتفانى في خدمة الآخرين أحياناً أو يتذوق فرح التفاني. وإن كان شاباً (هذا الشعور موجود في بعض الناس) كان يحب حياة النشاط فيصبح مجرد التوقف عن العمل حتى لفترة قصيرة جداً، والاختلاء إلى النفس مرة من الوقت من المستحيلات النفسية. فالحياة هي حركة ومبادرة واتخاذ قرارات ومسؤوليات، في حين أن الصلاة هي استراحة وعدم حركة وانتظار وخضوع. في نظر الذي يحب حياة النشاط المكثف، تبدو الصلاة تقرب من الموت، والحال فأن الإنسان ينفر من الموت وهذا شيء طبيعي.

الافخارستيا والسر:

أن سر الافخارستيا عميق جداً ذو وجوه مختلفة ومتشعبة جداً. حتى أنه يصعب استيعاب مضمونه في صفحات معدودة كهذه. وذلك بأنه ملحق كل شيء والنقطة التي تتباعد منها جميع الخطوط وتقارب إليها. أنه وحدة الله والإنسان في المسيح. وحدة الماضي والحاضر والمستقبل، وحدة الطبيعة والتاريخ وحدة التقبل والعطاء.

وحدة الموت والحياة – الافخارستيا هو سر المسيح الذي يبذل نفسه طعاماً للبشر ليحولهم إلى نفسه ويكوّن بذلك جسده السري الذي هو الكنيسة (كلمة سري) لا تناقض (كلمة واقعي) ويمكن أن نفهم ذلك إذا فهمنا معنى التدبير الإلهي الذي يوحد جميع البشر في الله بالمحبة واشراكهم في حياته الخاصة... "الله شاركنا في ناسوتنا لكي نشاركه في لاهوته".

كلمة الافخارستيا (يونانية) مشتقة من فعل (شَكَرَ).. وليس ذلك بطريقة الصدفة... والشكر هو الاعتراف بأن كل شيء هو نعمة. وإذا كان كل شيء نعمة فلابد أن يكون كل شيء (شكراً).

وإذا كان المسيح يبذل نفسه طعاماً لنا، فلكي يجمعنا في جماعة أخوية.. اشدد على أن المسيح يجعل من نفسه طعاماً لكل منا، فلا يعني هذا أني سأهمل رؤية الجلوس إلى المائدة. أي الطعام الذي نتناوله حقاً، لا على كل واحد على حدة. فالوجه الشخصي والوجه الجماعي أساسيان.

أن المسيح أساس الافخارستيا وعلامة العهد الجديد في الساعة التي أصدر فيها البند الوحيد في هذا العهد الجديد: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم" فبند الاتحاد بالله هو اتحاد البشر الأخوي بعضهم لبعض أي بناء الجماعة المسيحية... ولا عهد مع الله ما لم يكن هناك عهد متبادل بين البشر.. إذاً كل واحد عليه أن يفهم معنى الصلاة.. إلى الله.. وبناء الصلة بين الآخرين... لقد وُضّحت رؤية التجدد والخمر منذ القرون الأولى للمسيحية وإذا أوجبت الكنيسة على المسيحيين طوال القرون.. الاشتراك في الاجتماع القرباني (القداس) مرة في الأسبوع على الأقل فلم يمكن ذلك بدون أسباب.. فالصلاة لابد من الحفاظ عليها. كل من يدخل ويحضر إلى المائدة عليه أن يفهم ويعي أنه ما جاء إلاّ لأنه يشعر بعمق كم هو محتاج للتناول من هذه المائدة بالتساوي مع كل الحاضرين دون تمييز..

وأن الشوق إلى اللقاء بالمسيح من خلال الآخرين هو الدافع إلى الالتزام بحضورنا وليس لأنه مجرد عادة جارية، ولقد وصلتنا بقايا بعض الصلوات القربانية أحب أن أنهي هذا المقال بواحدة منها: "يا إلهنا، كما أن حبوب القمح كانت مبعثرة في السهول فطحنت وأصبحت طحيناً واحداً، وكما أن عناقيد العنب كانت مبعثرة على التلال فعصرت وأصبحت خمراً واحداً، فلنكن مجمعين في حماية أخوية واحدة".. وكان القديس أغسطينوس يقول: "حين نأكل جسد المسيح، نضمه إلى أنفسنا وإلى البشرية كلها".

حين نفهم أن قطعة الخبز المقدس التي نتناولها هي جزء صغير من ذلك الخبز الواسع الذي هو البشرية كلها التي إلهها المسيح. لا تعود لنا رغبة في الضجر.. لولا الافخارستيا، لما كان هناك رجاء قيامة... ليست الجماعة مجردة. فلا وجود لها، إن لم يكن هناك روابط محبة وصداقة متبادلة.. إن لم يكن كل واحد من أجل الآخرين أكثر مما هو من أجل نفسه.. الذي يجعلنا (واحداً) هو المسيح. والذي لا يعطي جسده إلا بعد أن يقسَّم.. فالخبز القرباني هو خبز مكسور، والقداس هو (كسر الخبز) أي بناء الجماعة.. أن تتقاسم الخبز الواحد هو الذي يعني أنه يجب علينا أن نقاسم سائر الناس ما يمكننا أن نقاسمهم: مالنا ووقتنا وثقافتنا.

المصادر:

1. فرح الإيمان بهجة الحياة، الأب فرانسوا فاريون اليسوعي، دار المشرق – بيروت، ١٩٨٨.
2. سلسلة محاضرات في الفلسفة والحياة الروحية للأب روبير الكرملي – مدرسة الصلاة (كنيسة العذراء فاطمة، بغداد، ١٩٩٤.

تحقيق الذات والالتزام المسيحي

بقلم: سليم كوكه

مقدمة:

جاءت فكرة كتابة هذا الموضوع من حديث دار بين أحد الأصدقـــاء وزميل له في العمل وهذا الأخير من أرضية أو خلفية كاثوليكيـة (ملتزمـة) إن صـح التعبير، فهو (أيرلندي) معروف بتعصبـه الطائفي (الكاثوليكي) ولكنه اليوم يرى نفسه أنه تحـرر من تلك العقلية ((المتدينة))، التي أكتشف (حسب تعبيره) فيما بعد أنها كانت (قيود) تحـرمه من القـيام بـما تشتهيه نفسه (وارجو ألاّ يكون المعنى مفهوماً خطأً) فحينما سأله صاحبه "وكالعادة الجارية عندنا نحـن الشرقيون والتي لا يحبذها الغربيون":

أنت أيرلندي أعني كاثوليكي ملتزم.

كنت كذلك. وأردف في الكلام أما الآن فقد قـطعت العلاقة نهائياً ولم أعد أدخل الكنيسة إلاّ بالمناسبـات والأمور ماشـية على ما يرام ولا توجد أي مشـكلة (ولا دوخة رأس)..

لقد رأيت في كلام مثل هذا موضوعاً شيقاً قـد يفتح الكثير من التسـاؤلات وقـد ينطبـق على وضعية الكثيرين منّـا، وأنا شخصياً لو لم يمسّني الموضوع فأكون أنا ذلك الأيرلندي في حالات كثيرة لما شدني الحديث مطلقاً...

فملخص الكلام هو: ألا نمر نحـن أيضاً في أحـيان كثيرة بـنفس التجربـة إن كان مع أنفســنا أو مع الآخرين؟ وخاصة أولئك المتربـــين في أجواء عائلية متدينة فنشعر بأن هذه التربـية الدينية أو (الدين) يكون أحياناً عبئاً علينا وعلى حياتنا فلا نعيشها كما نريد ونرى (فرصة) سانحة لنتخلص من هذا (العبء) أو لنقـل من هذه (القيود) الثقيلة التي نعتقد بأنها تكون سبباً في عدم تحقيق أحلامنا وأهدافنا الشخصية أو تحقيق ذواتنا... فما السبب يا ترى؟؟!!!!

تحقيق الذات:

يُعرف هذا المصطلح الاجتماعي (أعني الغير الفلسـفي المتعلق بالفلاسـفة، بـل بـعلماء الاجتماع) على أنه الوصول أو تكميل ذلك الاندفاع اللاشعوري المولود مع كل إنسان لتحقيق احـتياجاته الشـخصية أو (هدفه) أي بمعنى تكميل شخصيته التي ينفرد بها كل إنسان، إن كان ذلك من خلال العمل أو المهنة أو الدراسـة أو من خلال مرحلة معينة أو عمر معين أو سنين معينة... مثلاً: هناك من يهدف إلى أن يجمع مثلاً كذا مبلغ من المال وهو في عمر معين أو أن يكمل دراسـته العليا في الاختصاص الفلاني أو يرى نفسه أن يصبح ميكانيكياً.. أو أن يبـني عائلة في مرحلة معينة.. أذن هناك تحقـيق شـيء ما، والتحقيق يعني إنجاز شيئاً ملموساً أو غير ملموسـاً، إن كان مالاً أو دراسـة أو مهنة... إذن هناك فطارة وعمق في آن واحد. ولا عجب أن نرى أن هناك الكثيرون ممن

يجدون أنفســهم في خدمة الآخرين وتكريس ذواتهم في تلك الخدمة، بينما الآخرون يعتبــرون أن أملهم وكل هدفهم هو النجاح في جانب معين من الحــياة يخدم مصلحتهم الشخصية فقط. بينما رجال الكنيسة ولنقل اللاهوتيين فهم يعرفون (تحقيق الذات) بــنفس المعنى ولكن من وجهة نظر إنجيلية فيعتبرونه على أنه ((تكميل المواهب الوزنات أي النعم التي أعطاها الله لكل إنســان وبأشــكال مختلفة على غرار مثل الوزنات)) التي يتكلم عنها يســوع (متى ٢٥:١٤-٣٠).. وكذلك يُربط ذلك بالرسالة المُلقــاة على كل إنسان (كل فرد في الكنيسة) لإكمالها بشكل صحــيح يرضى الله إن كان ذلك من خلال العمــل أيضــاً أو العائلة أو المجتمع.. وأيضاً على غرار الرسالة التي أكملها يسوع في حياته الشخصية والإلهية.

الالتزام:

تأتي الكلمة من لَــزم، أمسك.. ليس بالمعنى المادي وإنما المعنوي، فهناك التزام بمبادئ وتقاليد عائلية، عشائرية، حزبية أو طنية، أي هناك ما يشبه بــنظام يُسيّر مجموعة معينة من الناس بشكل مشابه إلى حد ما ويخضعون لنفس القوانين والشــرائع فيكون من السهل كشــف من يخرج عنها تصرفاً لأنها كحلقــة تعيش داخلها هذه المجوعة وتتمركز حول نقــطة أو نقاط معينة.

وموضوعنا الأهم هو الالتزام المسيحي: الذي يُعرّف على أنه التمسك بمبادئ وأسس يؤمن بــها مجموعة من الناس ويؤمنون بأن التزامهم الحقيقي والصحيح هو بإيمانهم العميق بذلك الشخص الذي هو محور حياتهم وهو الذي عاش قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة من الآن وهو المسيح الذي على اسمه (ســميوا بالمسيحــيين).. وهذه التســمية تطلق عليهم منذ طفولتهم (أي عماذهم) والذي في الحقيقة هو إمساك وشد يقوم بها المسيح.. نغوص في حياته وموته وقيامته واليوم نغوص في تعاليمه وكتبه... إذن بعد العماذ تتعدد الالتزامات والمشــاغل ومن الناس من يبقى أميناً لعماذه (التزامه الأول) إلى مرحــلة معينة من العمر (١٠-١٢) سنة أو حتى إلى (٢٠ سنة) بالرغم من التغيرات الفسلجية والنفسية في مرحلة المراهقــة.. ومنهم من يبقى أميناً إلى مراحل طويلة من العمر لا بــل يكرس نفسه لهذا التعهد (العماذ) فيتعمق في إيمانه يوماً بــعد يوم ويصبــح المســيح والكنيســة كل اهتمامه.. كالمكرسين، الكهنة، الرهبان ونشكر الله إن عالمنا ليس خالياً من هؤلاء (واذكر بالرهبان الذين نظمت الكنيســة سفرة جماعية إلى ديرهم في ملبورن قبل أشــهر عديدة) ومن الناس من تعمذ ولم يدخل الكنيسة حــتى يوم تناوله الأول أو زواجه أو دفنه... وهؤلاء هم كُثر مع الآسف.. وفي كل الحــالات تلعب الظروف العائلية والتربــوية والمادية دورها في التزامنا تجاه إيماننا.

أما المجموعة التي تهمنا فهي تلك الجماعة العلمانية التي تصارع من أجل أن تبقى أمينة للكلمة من خلال عدم قطع العلاقــة مع الكنيســة (كجماعة) والمفروض أننا ندخل تحت سقف الكنيسة بمعنى نقبــل ضمنياً أن نكون جزءاً من هذه الجماعة بكل إيجابــياتها وسلبــياتها وحــلوها ومرها.. وكلنا نعرف بأن السلبيات أكثر من الإيجابيات (على حد قول الكثيرين).. إذن هذه الجماعة التي

تصارع من أجل "البقاء" ونسمي ذلك (صراعاً)، لأن هناك فرق شاسع بين ما تريد أن يسود العالم من تعاليم وقيم وما هو عليه حال العالم، أي هناك فرق بين الواقع والحق فيعني هناك صراع وإن لا نشعر به؟؟ إلى أي مرحلة تستطيع أن تصمد بوجه التيار إذا غاصت في المجتمع وأرادت أن تبني وتحقق ذاتها، ألا تبقى هذه التعاليم عثرة أو شيء ثقيل في تراتب أيام حياتها؟؟؟ وخاصة إذا أرادت أن تعيش حياة طبيعية مطمئنة (بالمصطلح البشري)؟

في الحقيقة إن هذه التعاليم لا ولن تبقى (عثرة) في زمن من الأزمان إذا وعينا أن الالتزام تقيد إرادي ومسؤولية واعية يتبناها الإنسان عن قضية يؤمن بها ويراها ذات فائدة له ولغيره. والالتزام الحقيقي يتطلب الوعي والحرية في اختيار أمر والتمسك به، رغم كل الظروف الطارئة والصعوبات المعاكسة. فكل التزام حقيقي يقتضي المعرفة والإرادة: معرفة الأمر الذي نتقيد به والإطلاع على فوائده وعلى مدى ضرورته للحياة من جهة، ومعرفة ذاتنا وطاقاتنا وميولنا وإمكانياتنا من جهة أخرى (معرفة الموضوع ومعرفة الذات). كما أنه يقتضي الإرادة التي تختار هذا الأمر بحرية لكونه ناقصاً وتميل إليه وتسعى في تحقيقه خلال جميع الظروف والصعوبات وما أكثرها..

مرة أخرى كما لتحقيق الذات كذلك بالنسبة للالتزام يربطنا به رجال الكنيسة واللاهوتيون بالتزام المسيح الذي يعتبرونه (مربط الكلام) وكما نحن أيضاً على أنه مثلنا الأعلى والنموذج الأسمى الذي نسعى إليه وإلى الإقتداء به في حياتنا وتصرفاتنا. والإنجيل يوضح لنا باسهاب كيف كان التزام المسيح في تحقيق ذاته وتحقيق الرسالة التي القيت إليه.. أي التزام المسيح ببعديه العمودي والأفقي.. أي التزامه بإرادة أبيه السماوي (الالتزام العمودي) من ناحية، والتزامه بخلاص البشر (الالتزام الأفقي من خلال محبته المتناهية للعالم) من ناحية أخرى.

والتزام المسيح كان أعمق من أن تؤثر فيه الاتعاب والمشقات والمعاكسات وعدم التفهم الذي لاقاه حتى بين صفوف تلاميذه، أو تقضي عليه هذه الاعتبارات أو ترغمه على التراجع (كما يحدث لنا أو حدث لصاحبنا الأيرلندي).

إن مثال المسيح من الممكن أن يكون لنا حافزاً قوياً يدفعنا إلى المضي قدماً في الالتزام الحقيقي إذا أخذ (أي المسيح) حيزاً متميزاً وحقيقياً في حياتنا العملية والواقعية إن كان من خلال العمل أو الدراسة أو أبسط أمور حياتنا.

ومهما يكن من امر فهذه الطريق لن تخلو من الصعوبات، فكل اختيار ينطوي على تضحية حقيقية، والذي يختار طريق المسيح والكنيسة أو أي مبدأ آخر يهتم بمصيره ومصير غيره فيختاره مع صعوباته (صليبه) الذي هو علامة المحبة القصوى ووسيلة الخلاص الحقيقية.

الالتزام والتضحية:

مهما حاولنا قوله بأن المسيحية ليست إطلاقاً ضد تحقيق الذات لو أخذناها بوجهها الصحيح وغير المشوه أو الذي شوهته السنين والأزمنة والبشر (مع الآسف) إلا أنه لابد

من ذكر شيء قد لا يعجبنا اليوم وهو ((التضحية))، والتضحية بمعنى أن تعطي ما لا يستحقه الناس أن تعطيه لهم حسب اعتقادك أي أن تعطي من جهدك وفكرك واهتمامك أو لربما من جيبك لأولئك الذين من حولك وفي مجتمعك وتعتقد أنهم في الكثير من الأحيان هم مصدر تعبك.. الطريق إذن صعبة جداً ما لم ننظر حقاً إلى المسيح ونتبنى محبته في كل أبعادها بما في ذلك التضحية الكبرى لا أقول بالحياة (ولكن ببعض مصالحنا الشخصية). وإذا لم ننظر إلى المسيح لا نستطيع السير طويلاً في آثره، فنكون هامشيين في إيماننا والتزامنا.. وطبعاً لا يكون التزامنا حقيقياً ما لم نجعله حراً وإرادياً وليس وريث الأبوين والمجتمع فقط. والتجارب تبين لنا أن ذلك الالتزام هو الهش الذي يُفقد بسرعة لأنه متوارث من آخرين (من الأبوين) وليس تكويننا... ولكن حتى تلك الأمور المفروضة علينا فرضاً من الممكن أن نتبناها إرادياً وشخصياً ونتفهمها وأن لا ننظر إليها من زاويتها الضيقة المزعجة لأنانيتنا بل من زاوية المسيح فنرضى بها بل نحبها بالرغم من صعوبتها. هكذا تصبح جميع الأمور وسائل حقيقية لنا للقاء بالمسيح الحاضر في حياتنا وفي جميع أحداثها ولاسيما المزعجة منها فلا شيء تافه في الحياة المسيحية بل لكل شيء من الأمور حتى أصغرها معناه العميق وقيمته الثمينة.

إن من ليس مستعداً للتضحية لا مكان له في المسيحية

خاتمة:

لا التزام دون تضحية ولا تحقيق ذات من وجهة نظر مسيحية دون التزام... التضحية الأولى تكون بأنانيتنا والتضحية هي التي تولي حياتنا خصوبتها الخلاصية.. وهناك من يقول (إن من ليس مستعداً للتضحية لا مكان له في المسيحية) ولا مكان له في كنيسة المسيح وفي تنظيماتها الرسولية... فالعدو الأول للالتزام هي الأنانية التي تدفعنا إلى حصر اهتمامنا بذواتنا فقط، وإلى الانغلاق إلى نوع من اللامبالاة تجاه الواجب وتجاه الآخرين والكنيسة... فإذا أردنا أن نكون أناس نحب الالتزام يجب أن يكون لنا التصميم الدائم في الاستمرار في التضحية.

المصادر:

1- الكتاب المقدس، الهوامش، المطبعة الكاثوليكية ١٩٩٠.

2- مراحل النضوج الدومنيكي، ج٤، سلسلة محاضرات (محاضرة الأب يوسف توما: الالتزام، ج٤، ١٩٩٦).

3- سلسلة محاضرات (مدرسة الصلاة)، الأب روبير الكرملي، بغداد، ١٩٩٣.

همسة في أذن صاغية

بقلم سليم كوكا

لقد كثر الذين يطرحون اليوم على غيرهم وعلى أنفسهم هذه الأسئلة:

ألا يمكن الأنضمام إلى المسيح بدون المرور بالكنيسة؟ وأيضاً أيمكن الذهاب إلى الله بدون المرور بالكنيسة؟

لقد أصبحت الكنيسة على ما يبدو عقبة تحول دون الإيمان، فهؤلاء يرغبون في المسيح وإنجيله ولكن بمعزل عماّ نسميه "النظام" أي المؤسسات البابوية والأبرشية والقانونية والأخلاقية وخدمة الأسرار والاشتراكات···الخ التي تشغل كواهل الكثيرين· إن أسئلة بهذا الشكل تخفي فخاً· ففي الكثير من المعتقدات غير المسيحية يدور الكلام حول الذهاب إلى الله، أما في المسيحية فأننا، بالأضافة إلى ذلك، نؤمن بأن الله هو المبادر بأن يأتي، وأن هناك طريقاً تنطلق من الله وتصل إلى الإنسان وتسمى "الكنيسة"، فالكنيسة هي الطريق التي يستخدمها الله ليلحق بنا، وهو لا يريد أن يُؤَلِّه الإفراد، كل واحد بمفرده، بل

البشرية كلها، إن الله يحب نفسه والكنيسة تجسد عطية الله هذه في التاريخ. هناك الكثيرون ممن يرون الكنيسة منظمة تبدو لهم في أنحطاط، فكم من أبنية كنسية وكاتدرائيات أُغلقت أبوابها وتحولت إلى متاجر متنوعة. وهناك أيضاً من يشعرون بأن الكنيسة هي مكان جميع الخرافات ويعتقدون "وليسوا دائماً على خطأ في ذلك" بأنها حليفة الأقوياء والأغنياء في هذا العالم. وبكلمة واحدة لا يرون فيها إلا صورة ساخرة ومضحكة في أعينهم، ولكن عجباً، لنتساءل، إنْ عُرضَتْ لهؤلاء الكنيسة في صورتها الحقيقية أي بصفتها علامة تأليهنا وتجلي المسيح فيها، فهل ينظمون إليها أم لا؟

أيها القاري العزيز: أن الكنيسة ليست مؤسسة تتحكم من الخارج في حياة المسيحيين، كمنظمة ذات قوانين وقواعد وبرنامج يجب عليك الموافقة عليها قبل انضمامك إليها، بل هي ما ينقل إلينا الحياة الإلهية وتجمعنا تحت سقفها كبشر متساوين في كل شيء بالرغم من اختلافنا واختلافاتنا. أن حياتنا تحتاج إلى الانتعاش والتقوية والتنظيم، فان غابت القواعد والأنظمة يخشى أن يؤدي مجرد الدينامية إلى أسوأ الانحرافات، وإن لم يكن هناك إلاّ القواعد والأنظمة والقوانين فأن الحياة تغيب واندفاعها يغيب أيضاً وبذلك سنقع في "الشرعية" وهي لا تلبي مطلقا أية حاجة من حاجاتنا العميقة. فالجوهر هو الحياة وهو الينبوع، وما الينبوع بالنسبة لنا إلا المسيح، لا صلة لنا إلا على يد المسيح، ولا صلة لنا بالمسيح إلاّ على يد الكنيسة. جميل أن يرغب البعض بالذهاب إلى الله بدون المرور بالكنيسة، ولكننا من "أمنا الكنيسة" نتعلم ونتعرف على صورة من يكشف لنا الله بشكل واضح وهو المسيح يسوع. نعم أن الكنيسة لم تخل عبر التاريخ ولا تخلو في الوقت الحاضر من بعض النواقص والأخطاء التي آلمتنا وتؤلمنا، كما نتألم من نقائص "أمنا"، ولكن كيف نعرف من دون الكنيسة أن الله محبة وأنه تجسد؟ أجل قد نجد في الكنيسة طرقاً تربوية كثيراً ما تخطاها الزمن وأموراً تحتاج إلى تغيير جذري وإصلاح دائم إلا أن جوهر الأمور وهو إيماننا بأن "إنساناً إلهاً وأننا نُؤنَس ونُؤَلَّه فيه على وجه تام" يأتينا على يد الكنيسة، فإذا ليس التعليم وحده يأتينا منها بل حياة المسيح نفسها عن طريق أسرار الكنيسة. والكنيسة ليست كما يظنه البعض ضرورة تربوية انتقالية تشبه سلطة الوالدين التي ينفصل عنها الإنسان وكما تقدم في الحياة، بل بالعكس فكلما تقدم الإنسان في الحياة أقتربت منه الكنيسة، وفيها يشفي غليله، لانه بها يتقدم وهي التي تمكنه من التقدم وبها يرتبط بعلاقة صميمة لا يمكن الأستغناء عنها. فحب الكنيسة هو حب تحرك الله نحونا، وشعاع هذا الحب لا يوفر الحدود. وهو يضم إلى صدره وكيانه كل البشر دون أستثناء أو تمييز. فهل يمكننا أن نحول دون وصول هذا الشعاع إلينا؟ هذا ما يعتمد على إختيارنا نحن.

"أنا الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بيَّ"

القديس توما الاكويني

١٢٢٥ – ١٢٧٤

إعداد سليم كوكا

مقدمة

ليس من السهولة أن نتطرق إلى فكر معلم اللاهوت الأول لعقود وقرون عديدة للكنيسة الكاثوليكية في صفحات محدودة، الذي أختص في فكره لاهوتيون كبار ومدارس عدة وما هذه الصفحات إلا محاولة متواضعة جداً قد يكون لبعض القراء ذوي الإطلاعات اللاهوتية رأي فيها أو نقد معين لعدم كفايتها ويسعدنا هذا النقد بلا شك. ولربما قد يبدو أيضاً هذا الاختصار في فكر هذا المعلم الكبير شيئاً معقداً وغير مُلذّاً للقارئ العادي. لقد حاولنا أن نستغل فرصة صدور هذا العدد الخاص عن التربية والتعليم لمجلة نوهرا بهذه المحاولة عسى أن تكون ذات فائدة وما هي إلا غيض من فيض فكر هذا اللاهوتي الكبير.

نبذة عن حياته

ولد في قرية كاسيتلو دي روكاسيكا قرب اكوينو في إيطاليا عام ١٢٢٥، وتوفي في بريفورنو في مقاطعة لاتينيا عام ١٢٧٤. تلقى دروسه الأولى في دير مونتي كاسينو الشهير الواقع قرب مسقط رأسه. أرسله والده بين الأعوام ١٢٦٣ – ١٢٣٩ إلى مدينة نابولي جنوبي إيطاليا ذات السمعة الطيبة في المجال العلمي والدراسي وخاصة أنه كان قد تم إنشاء جامعة شهيرة فيها قبل ١٥ عاماً في عهد فريدرك الثاني. وهناك في نابولي درس قواعد اللغة والجدل وفن الخطابة والهندسة وعلم الفلك والحساب كما درس الفيزياء أيضاً. وفي عام ١٢٤٣ دخل الرهبنة الدومنيكية النشيطة في الوعظ والكرازة الإنجيلية والمهتمة بالدرس. ولكن ما ان

توما الاكويني أشهر لاهوتيي الكنيسة

اتخذ هذا القرار حتى لحق به أهله وعائلته وأرجعوه إلى مسقط رأسه محاولين إقناعه لا بل إجباره على ترك الحياة الرهبانية وعدم الانخراط في حياة قد تضيع مستقبله العلمي والدراسي وقد نجحت محاولات عائلته هذه إلى حدٍّ ما ولكن ليس حتى النهاية إذ سرعان ما دخل مجدداً الرهبانية الدومنيكية بعد ثلاثة أعوام تاركاً إيطاليا إلى كولونيا عبر باريس حيث تابع الدراسات الفلسفية بإدارة وأشراف الراهب الدومنيكي القديس البرتوس الكبير، الذي كان يهتم بتقدم توما الاكويني الفكري والمنهجي ويقدر فيه ولعه الكبير في تفسيرات لاهوتية حتى أنه سلمه تدريس الأخوة الشباب الدارسين في جامعة باريس آنذاك.

خصائص الفكر الاكويني

من المتفق عليه أن القديس توما الاكويني يعد معلم اللاهوت الأشهر في الكنيسة إذ لا تخلو مكتبة كبيرة أم صغيرة، عامة أم خاصة، من مؤلفاته اللاهوتية التي تحتل القسم الأكبر منها. لقد وضع العشرات لا بل المئات من المؤلفات في الفلسفة واللاهوت وفي الكتاب المقدس، وهو صاحب أكبر سلسلة لاهوتية على الإطلاق – المجموعة اللاهوتية Summa theologiae – التي كتبها نزولاً عند رغبة مساعده الأخ ريجينالد (Brother Reginald) إذ طلب منه أن يكتب ملخصاً عن الإيمان الكاثوليكي لأولئك اللذين لا تسنح لهم الفرصة والظروف ليتابعوا فكره اللاهوتي. فاستجاب القديس إلى رغبة صديقه ومساعده فكتب بلغة مفهومة حتى لغير الدارسين اللاهوتيين وصبَّ فيها عصارة فكره، في مواضيع شتى وبالأخص في الثالوث الأقدس والتجسد والعناية الإلهية والدينونة الأخيرة وما شابه.

ومن المتفق أن القديس توما الاكويني فيلسوف الماورائيات (ما وراء الطبيعة) التي درسها بعمق من خلال مؤلفات أرسطو فقد أعطى المبادئ العامة لها وبقي عليها دون تغيير ملحوظ حتى في مؤلفاته الأخيرة ولابد هنا من ذكر بعض من مبادئ ما وراء الطبيعة الرئيسية.

"أن كل كائن موجود هو فعل صرف خالص أو مركب من فعل وقوة، الفعل الخالص الصرف هو فريد (Unique) ولامتناهي، تركيبه مع القوة يجعل الفعل قابل التكاثر ومتناهي. وبما أن كل كائن هو ما هو عليه بذاته أو بارتباطه بغيره. الفعل الخالص الصرف هو ما عليه بذاته لا يرتبط بسبب ليكون ما هو عليه: الفعل الخالص الصرف هو بدون سبب وسائر الأفعال هي متناهية مركبة ومتنوعة وسببها الفعل الخالص. الوجود هو أسمى وأفضل الأفعال وبما ان الجواهر المادية والعقول المحضَّة هي متنوعة وكثيرة إذن ليست هي الفعل المحضَّ للوجود إنما هي موجودة وسببها الفعل المحضَّ للوجود وهو الله. إذن الله موجود وهو فعل محضَّ أحد ولامتناهي". ويزيد القديس الاكويني على هذه المبادئ على مبادئ أخرى: "الوجود هو تصور متماثل (Analogic) وليس متواطئ (Univoque) ذو معنى واحد. فالوجود هو فعل وفعل كل الأفعال وكل الصور. الوجود الجوهري في كل كائن هو الوجود الأول لذا فهو فريد (Unique) والصورة الجوهرية هي أيضاً فريدة".

ملخص الوجود والصيرورة عند الاكويني

من خلال مبادئ التي تعمق فيها الاكويني وفكره اللاهوتي والفلسفي طرح مشاكل الوجود والصيرورة في مؤلفاته. فالوجود هو تصور متماثل وخبرتنا هي خبرة وجود في تحول وفي تغير ثم في صيرورة وتحصل

هذه الصيرورة باتصال واستمرار متوالي بقفزات متتالية. هناك دائماً عاملان: أحدهما يبقى والثاني يزول، وهذا التغير يحصل بالانتقال من القوة إلى الفعل حسب أشكال الصيرورة، وهذا الانتقال من القوة والفعل لا يحصل إلا بواسطة عامل من الفعل. وفي هذا المجال يمضي الاكويني على خطى أرسطو، فيتكلم عن العلل الأربعة: ما يبقى هو العلة المادية، ما يتحول هو الصورة (العلة الصورية)، من يدفع إلى الانتقال هو العلة الفاعلة، وما يحث الفاعل هو الغاية (العلة الغائية).

الله والإنسان والموجودات الأخرى

يمكننا القول أن القديس توما الاكويني وضع كل مبادئ ما وراء الطبيعة في سبيل حل بعض المسائل الأساسية في اللاهوت في زمانه. فالإنسان في نظره ليس عقلاً محضّ إنما عقلاً متحداً مع الجسم، ولذلك لا يمكن أن يلتقط بالحدس المباشر وجود الكائن المحضّ الخالص. فلكي يؤكد الإنسان وجود الكائن المحضّ، لابد من أن ينطلق من اختبارات حسية. والطرق التي استعملها عن وجود الله هي خمسة:

(١) الكائن المتحول والمتغير. (٢) الكائن العلة ولا علة لوجوده. (٣) الكائن الممكن ان يوجد وأن لا يوجد. (٤) الكائن ذو الكمال الناقص. (٥) الكائن الذي يعمل بموجب غاية يجهلها. كل هذه المميزات تبين أن هذه الكائنات غير كاملة ومتناهية، إنما غير مطلقة، وليست هي أفعالاً محضّة. إذن فمن يوجه طبيعة أحد الكائنات نحو غاية ما لا بد أن يكون مكونه وخالقه، فهو الكائن الموجود بشكل أسمى وأفضل وسبب الكائنات الأقل وجوداً فهو الفعل المحضّ للوجود، أحد وكليّ الكمال. وهذا الكائن هو العلة الفاعلة الأولى لأنها تعطي الوجود لكل شيء، وهذا الكائن هو أساس كل المعلولات ولولاه لما وجد شيء ولكان العدم. فهذا الكائن هو المحرك الأول ومحرك كل شيء ولا أحد يحركه.

أما عن الإنسان فقد طبق الاكويني مبدأ المادة والصورة وأن الإنسان ككائن حيوي واحد ذو نفس وهذه النفس يجب أن تكون متحدة جوهرياً بالمادة ولهذا المبدأ الحيوي نشاط مستقل عن المادة وهو النشاط العقلي، لو كان هذا المبدأ جسماني لما عُرف إلا بطبيعته وإذا عرف الأشياء فانطلاقاً من طبيعته وعلى ضوئها وليس بموجب خصائص هذه الأشياء. النفس البشرية الإنسانية تعرف بشكل مستقل طبائع الأجسام المختلفة وليست جسماً ولا تستعمل في معرفتها عضواً جسدياً وإلا لكان طبيعة هذا العضو حاضرة دائمة، مجددة في النفس. ويضيف الاكويني أيضاً في تحليله أن النفس الإنسانية الروحية وهي مبدأ الحياة في الإنسان وهي مبدأ النشاط النباتي والحس العقلي، فهو الصورة الجوهرية ومتحدة بالجسد بشكل تتعاون معه في النشاطين الأولين النباتي والحسي، بينما تقوم وحدها بالنشاط الثالث وهو العقلي. لكن، للنفس وجوداً بذاتها ولا يمكن أن يأتيها هذا الوجود بالولادة

من المادة، لا يمكن لأي فاعل جسماني وبأعمال جسمانية أن يعطي الوجود لكائن غير جسماني أو روحاني، ليست النفس البشرية كالمبادئ الحياتية في النباتات والحيوانات وإنما لابد من خلقها من العدم، والقادر على هذا الخلق هو الله وحده.

أما عن الإرادة، فأن القديس توما الاكويني يرى أن للإنسان إرادة حرّة، لأن له نشاطٌ عقلياً قادراً على المعرفة الشاملة وغير المادية، فالإنسان قادر أيضاً على معرفة المبادئ العامة للكائن (الله) وللخير وهو قادر على أن يعرف معنى الخير اللامتناهي. ويلخص أيضاً أهمية الأعمال لدى الإنسان، على أن الأعمال الجيدة أخلاقياً هي التي تكمل الإنسان حسب طبيعته المركبة: كائن عقلاني ومحسوس. وبما أن الله هو خالق الإنسان فمن المعقول والواجب أيضاً ان يكون مرتبطاً به بواجبات خاصة ويشترك مع غيره من الناس فتكون له عندئذ ارتباطات وواجبات جديدة، فمعيار الخير والشر لا يكمل في اللذة والألم الناجمين عن الأعمال ولا في المصلحة الخاصة والعامة، إنما يكمن في تناسب وعدم تناسب الأعمال مع كمال الطبيعة، فالعقل هو الذي يحكم في ذلك لكونه أكثر كمالاً من المحسوسات.

القديس توما الاكويني وضع كل علم ما وراء الطبيعة في سبيل حل بعض المسائل الأساسية في اللاهوت في زمانه.

خاتمة

لقد اختص في دراسة مؤلفات وفكر القديس توما الاكويني الآلاف من الدارسين والباحثين واللاهوتيين وعلماء الكتاب المقدس إلى درجة أن أصبح العلامة المميزة لكل من يهتم بالدراسات الدينية واللاهوتية والفلسفية العميقة منذ زمانه ولحد الآن. وأنتشرت مدارس الفكر التوماوي في كل بقاع أرض الله الواسعة وحللت دراساته من قبل مختصين كبار في فكره الفذّ. إلا أنه من الملاحظ أن العقود الأخيرة من القرن الماضي طرأ على ذلك تباطأ ملحوظاً. إذ أخذت الدراسات اللاهوتية المعاصرة المطروحة من قبل بعض اللاهوتيين المعاصرين وخاصة الألمان منهم مكاناً أوسع بين الدارسين والمهتمين مفسرة العلاقة بين الوجود والموجود أي الله وخليقته بشكل آخر خالفوا تلك التي رسمها توما الاكويني في مؤلفاته. فالله ذلك الكائن البعيد والثابت في موقعه أصبح اللاهوتيون المعاصرون يرونه متحسساً لخليقته مشاطراً إياها آلامها وأحزانها وحياتها. فبذلك أنحوا منحى مغايراً نوعاً ما لما كان يطرح في الفكر التوماوي لعصور عديدة. ومع ذلك يبدو أن السنين الأولى من القرن الحالي كشفت عودة أخرى للباحثين والدارسين إلى الفكر التوماوي لاكتشافهم فيه عمقاً روحياً وكشفاً جديداً لأطروحاته التي بات يُنظر إليه من وجهة نظر معاصرة وطريقاً جديرةً لاتباعها لتعميق الإيمان المسيحي لكشف صورة الخالق الحقيقية.

المصادر

فرح الإيمان بهجة الحياة، فرانسوا باريان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

اللاهوت المعاصر، الأب منصور المخلصي، بغداد، ٢٠٠٢.

مجموعة محاضرات الدورة اللاهوتية، موضوع الفلسفة، المطران بولص دحدح، كاتدرائية القديس يوسف (السنتر)، بغداد، ١٩٨٥.

The mystery of the triune God, John j. O'Donnell, Sheed & Ward Ltd, London, UK, ٢٠٠١

مفهوم الكنيسة في اللاهوت الراعوي

بقلم: سليم كوكا

ليست الكنيسة مؤسسة تتحكم من الخارج في حياة مجموعة من الناس ولا هي نوع من الوسيط بين الإنسان والله كالدولة التي تتوسط بين دولتين تتعارض وجهتا نظرهما للتقرب بينهما والتوصل إلى التوفيق بينهم، والكنيسة هي قسم البشرية التي تجسد عطية الله هذه في التاريخ وتقبل على وجه المنظور عطيته، فالكنيسة هي سكنى الله بين البشر بالرغم من الهفوات التي تقع فيها، أو وقعت فيها، كأي منظمة، أو مؤسسة قد تمر في فترات ركود أو سبات أحياناً، أو قد لا تكون صالحة لتجلي صورة الله ومسيحه فيها بشكل صحيح كما يتهمها الرافضين لها (وليسوا دائماً على خطأ في ذلك). وبأنها حليفة قوى لأغنياء هذا العالم، ولكن يبقى هدف الكنيسة النهائي هو أن تكون الصورة الحقيقية لله وعلامة تأليهنا التاريخية.

الأصل التاريخي للكنيسة

نشأت الكنيسة من الإيمان بقيامة المسيح يسوع ومن إخلاص المؤمنين للديناميكية التي أحدثتها هذه القيامة وهي أن المسيح غلب الموت وهو حيّ إلى الأبد. وجميع الذين شاركوا في هذه القناعة استخلصوا نتائجها تدريجياً. ولكن الكثير من المعاصرين لم يتجاوزوا بتصورهم للكنيسة حدود الجانب الإنساني، أي لم يروا فيها إلا جماعة بشرية منظمة ومكونة من اشخاص متحدين في العقائد والعبادة. فهي سر شعب ما زال خاطئاً، ولكنه حاز على عربون الخلاص لأنه امتداداً لجسد المسيح – موطن المحبة والفداء. وهذه المؤسسة الفريدة في تصميمها أطلق عليها المسيحيون الأولون، الناطقون باليونانية، تسمية مستعارة من الكتاب المقدس وهي: (أكليزيا Ekklesia) أي كنيسة، فهي مع دلالاتها الاستمرارية بين إسرائيل والشعب المسيحي جديرة بأن تشحن بمضمون جديد. فهي تعني جماعة الشعب وهي: (كنشتا Knishta) بالعبرية أو (عيتا) في الآرامية، أي الجماعة الواحدة المتساوية في الحقوق والواجبات والمرتبطة بنظام واحد ومبادئ واحدة. هذه الكلمة لم تذكر في الإناجيل سوى مرتين: عندما يقول يسوع لبطرس "أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي" (متى 18:16) و"... إذا خطأ أخوك ولم يسمع لك فقل للكنيسة" (متى 17:18). ولكن هذه الكلمة وردت أكثر من عشرين مرة في سفر اعمال الرسل و60 مرة في رسائل القديس بولس، وهذا دليل على أن الجماعة المسيحية الأولى هي التي أعطت معنى لهذه المؤسسة وأدارتها بصورة واسعة ومنتظمة. ان اختيار الاثني عشر رسولاً يعني نشوء النواة الاولى ليس فقط لجمع الشعب الإسرائيلي بل أيضاً لجمع كل الأمم في شعب الله الجديد بالرغم من ميلان هذه الجماعة أحياناً إلى التقليد والحنين إلى الماضي، واحياناً التحرر من الماضي من أجل التطور والانفتاح. فمع العنصرة يبدأ ظهور الكنيسة العلني، لذا تعتبر الكنيسة هذا اليوم تاريخ ميلادها الرسمي حيث بعدها نمت الكنيسة بسرعة إذ أصبح سبيل الدخول إليها هو قبول كلام الرسل (أع 41:2). ومنه ينشأ الإيمان بيسوع القائم من بين الأموات، رباً ومسيحاً، قائداً ومخلصاً، ثم بقبول المعمودية يبقى الإنسان عضواً حيّاً فيها بفعل الروح القدس.

المؤسسة الكنسية:

يوضح لنا سفر أعمال الرسل والقديس بولس كيف ان الجماعات المسيحية الأولى كبرت وانظمت إليها الشعوب والأمم بتقلبات وخلفيات مختلفة، فكان لابد من تنظيم العمل وتعيين الخدمات والاتفاق على شكل الكرازة والبشارة إلى العالم كله. فتطلب الأمر تنظيماً سليماً منذ ذلك الحين، وإن تعثر بعض الأحيان إلى أن وجدنا اليوم الكنيسة متخذة شكل مؤسسة فيها خدمات متنوعة. وهذه الخدمات لابد ان تكون من أجل إنماء الحياة الروحية والإنسانية بين أعضائها، وكان من غير الواقعي أن تترك تلك الخدمات لحرية كل من أنظم إلى الكنيسة بل إلى أشخاص أوكل إليهم المسيح

مهمة رعايتها، وأوصاهم بالسهر على التمسك بالكلام الصحيح وبوديعة الإيمان: "يا طيماثاوس، أحفظ الوديعة" (1 طي 20:6). أما الهيكلية التي تأسست بعد الرسل أبتداءً من قداسة البابا، الأساقفة، الكهنة والشمامسة مروراً إلى الشعب ليست إلا حلقة متكاملة من الرباط الروحي. وليس من بين هؤلاء من هو رأس الكنيسة، فرأسها هو المسيح وحده، وهم أداة للمهمة الراعوية، التي أخذت أشكالاً متحضرة في أيامنا فباتت الكنيسة تمتلك دوراً للنشر وبنايات لخدمة العجزة ومدارس وجامعات وبنوك وما شابه ذلك. وبرز في أكليروسها علماء وعباقرة ليس في مجالهم الديني والروحي فحسب، بل في المجالات التقنية والفنية وفي العديد من المجالات الحياتية الأخرى. وابتكرت طرق إدارية لما يتلائم وظروف كل مجموعة كنسية، فحتى كنيستنا الكلدانية لم تعد بعيدة عن هذا الشكل الإداري المتحضر إذ نجد بعد الهجرة التي حدثت في العقود الأخيرة تفهم مفتوح وصريح لنوعية الإدراة الملائمة لتمشية أمور المؤمنين وكهنتهم في بلدان الشتات. فعلى سبيل المثال للحصر، فأن رعيتنا هنا في ملبورن تتبع في بعض الأمور الإدارية مطرانية اللاتين الكاثوليك أما طقسياً فتتبع بطريركية بابل الكلدانية في الوطن الأم. وبين هذا وذاك، تفهم واحترام متبادلين. ومن الواضح تاريخياً أننا ككنيسة شرقية كاثوليكية، تاقت منذ نشأتها إلى تأدية دور مميز هو دور (الجسر) الذي يربط بين الكنيستين الغربية الكاثوليكية من جهة والشرقية بكل تشكيلاتها من جهة أخرى. ولقد جاهدت لقرون طويلة تحقيق غايتها النبيلة هذه بالرغم من الظروف والمواقف وحساسية الأوضاع التي واجهتها، (إنها شرقية) من حيث إنتمائها وتراثها وتقليدها وروحانيتها وانتشارها المكاني. وهي (غربية) باتحادها برأس الكنيسة الكاثوليكية المنظور وبالشركة التي تربطها بهذه الكنيسة إن هي مالت نحو الغرب اهتمت بـــ (الليتنة) وان انغلقت في شرقيتها حصرت ذاتها، وهذا هو الصليب الذي اختارته بنفسها لتحمله بفخر واعتزاز.

لمحة لاهوتية عامة:

لقد نعتت الكنيسة بالعديد من الصفات حتى شاع علم دراستها (اكليزيولوجي: Ecclesiology) وانتشر بين الدارسين من مختلف الاتجاهات. وفعلاً اختلفت الأراء حولها إلا أنها توافقت على واحدة منها آلا وهي: أنها مؤسسة ذات رسالة خاصة إلى العالم بدأت مع أعلان مؤسسها المسيح يسوع ملكوت الله، فالكنيسة التي خلقها الله وأسسها المسيح وأحياها الروح الذي حلّ فيها موكولة إلى أيدي البشر، الرسل الذين أختارهم يسوع ، ثم من بعدهم خلفائهم الذين بوضع الأيدي نالوا موهبة التكبير (1طي 14:4). لقد اقيمت الكنيسة كجسد للمسيح عن طريق البشارة بالمسيح ووُلدت في معمودية واحدة وتغذت من خبز واحد فهي تجمع في شعب واحد أبناء الإله الواحد، أب الجميع، مزيلة الحواجز البشرية ومولدة تلك الوحدة التي هي جامعة كاثوليكية كما سميت منذ القرن الثاني لأنها تستطيع أن تكشف للبشر معنى حياتهم بقدرة الروح القدس. والكنيسة مقدسة لا فقط في رأسها ومفاصلها وأوصالها، بل أيضاً في أعضائها الذين قدسهم ماء المعمودية، ولا شك أن هنالك خطأة ومن هم لا يعكسون صورة قداستهم، إلا أنها على مثال معلمها لا تنبذهم وإنما تقدم لهم الغفران والتطهير فالكنيسة ليست هي غاية في ذاتها وإنما تقود نحو الملكوت.

لقد أعطى أباء الكنيسة وخاصة الشرقية منذ القديس ايريناوس جواباً لسؤال حول غاية التجسد؟ فكان الجواب: "أنه ما صار الإله إنساناً إلا لكي يصير الإنسان إلهاً". فغاية التجسد ليست التكفير عن الخطيئة الأصلية بل تآليه الإنسان بولادته ولادة جديدة في المسيح وعلى صورة المسيح. ولقد دُعيت الكنيسة (أماً) لأنه فيها يولد المؤمن من جديد لحياة جديدة وهي أيضاً عروس المسيح التي تلد أولاداً للحياة الإلهية. إنها كما جاء في سفر الرؤيا (أورشليم الجديدة التي نزلت من السماء من عند الله مهيأة كعروس

مزينة لعريسها). ونؤمن أيضاً أن كنيستنا رسولية أي بمعنى أن كنيسة اليوم وكنيسة الرسل كنيسة واحدة بالرغم من الفوارق التي قد تكون كثيرة على مستوى الصيغ والأشكال الخارجية ولكنها أمينة للمسيح الذي أسسها عبر جميع تقلبات التاريخ، ومنذ زمن الرسل حتى يومنا قامت بخدمة البشرية مربية أياها على أصول المحبة. وتجد الكنيسة النموذج الكامل لإيمانها ورجائها ومحبتها في شخص مريم العذراء التي قالت: "نعم" لله قبل أن تكون الكنيسة مؤسسة وهي التي شهدت مولودها على الجلجلة وفي العلية. وفي بولس الرسول مثال يحتذى به لكل الذين يواصلون العمل الرسولي ويتحملون ثمار الصليب التي لا حد لها، "ليتمم في جسده ما نقص من ألام المسيح في سبيل جسده الذي هو الكنيسة" (كولسي 24:1).

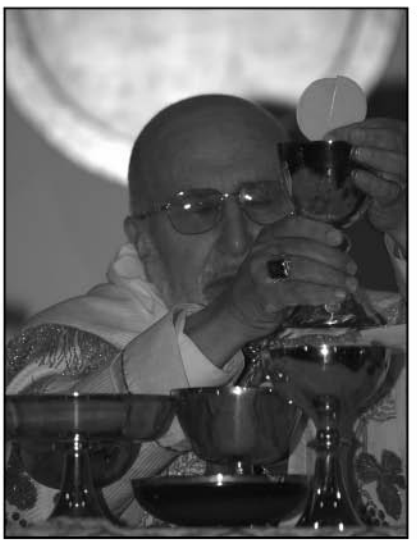

أن الكنيسة مدعوة لتكون صورة المسيح على الأرض، إذ أن المسيح أدخلنا في علاقة مباشرة مع أبيه، لم يفرض علينا قوانين ومشترعات كما كان في اليهودية (حيث تجازوت المشترعات الـ 375 بين المسموح والممنوع). لقد حصرها في شريعة واحدة وهي المحبة، والعلاقة الفارقة لمن ينتمي لهذه الجماعة هي نوعية المحبة والعلاقة التي يكنها للآخر. أن كنيسة اليوم تحتاج أن تبقى أمينة لهويتها وجذورها وإلى تجدد مستمر، أن لا تسير وراء تيارات تجردها عن إيمانها او تتستر تحت أقنعة غير ملائمة، إن كان ذلك رعاتها أو مؤمنيها، فعلى الطرفين تقع السؤولية الحاسمة والرائعة والواسعة النطاق، وعلى الطرفين معاً أن يزدادا شعوراً بهذه المسؤولية والقيام بوثبة رسولية مجددة. أن الكنيسة هي واحدة إن كانت منظورة (يعني بالمنتمين إليها)، وغير المنظورة (يعني غير العارفين بها). ولقد أرادها الله وسيلة لخلاص كل البشر دون تمييز، وهي ليست كما يظن البعض ضرورة تربوية انتقالية كسلطة الوالدين التي ينفصل عنها الإنسان كلما تقدم في الحياة، وأننا نسايرها حينما نكون أطفالاً في التعليم المسيحي وحتى مرحلة التناول الأول، وندنوا منها حينما نحتاج إليها للزواجات والوفيات والأوراق الخاصة للهجرة والعمل وما شابه. وموقفنا منها يعتمد على مدى تلبيتها لنا لهذه الخدمات. وأظن أننا على وعي تام من أن الكنيسة لم تعد تشييد عمراني جميل إنما تشييد منا كبشر وكجماعة لا نستغرب الأخطاء التي ارتكبت أو قد ترتكب ولكن يجب أن نعرف دوماً من أية زاوية ننظر إلى الأمور، فكثيراً ما نظن أننا نستند على أسس إنجيلية بينما الحقيقة تكون أننا نتستر بها.

لقد آن الآوان أن نعيد النظر في مجمل الأمور ونعي بأن الكنيسة هي للكل ولكل مراحل الإنسان الحياتية، فكلما تقدم الإنسان في الحياة اقتربت منه الكنيسة لأنه بها يتقدم وهي التي تمكنه من التقدم وتحت اطلالها يشعر الإنسان بطعم نجاحه وعمله ونشاطه أي حياته كلها.

المصادر:
1. معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت 1986.
2. المجمع الفاتيكاني الثاني، دساتير وقرارات وبيانات، الطبعة الثانية، ترجمة الأب حنا الفاخوري، المكتبة البولسية، بيروت، 1992.
3. فرح الإيمان بهجة الحياة، الأب فرانسوا فاريون، دار المشرق، بيروت، 1986.
4. اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر، ج2، الأب سليم بسترس، المكتبة البولسية، بيروت، 1989.
5. التثقيف الدائم في رهبنة القديس عبد الأحد، ج4، سلسلة محاضرات: محاضرة الأب نجيب موسى الدومنيكي، بغداد، 1998.

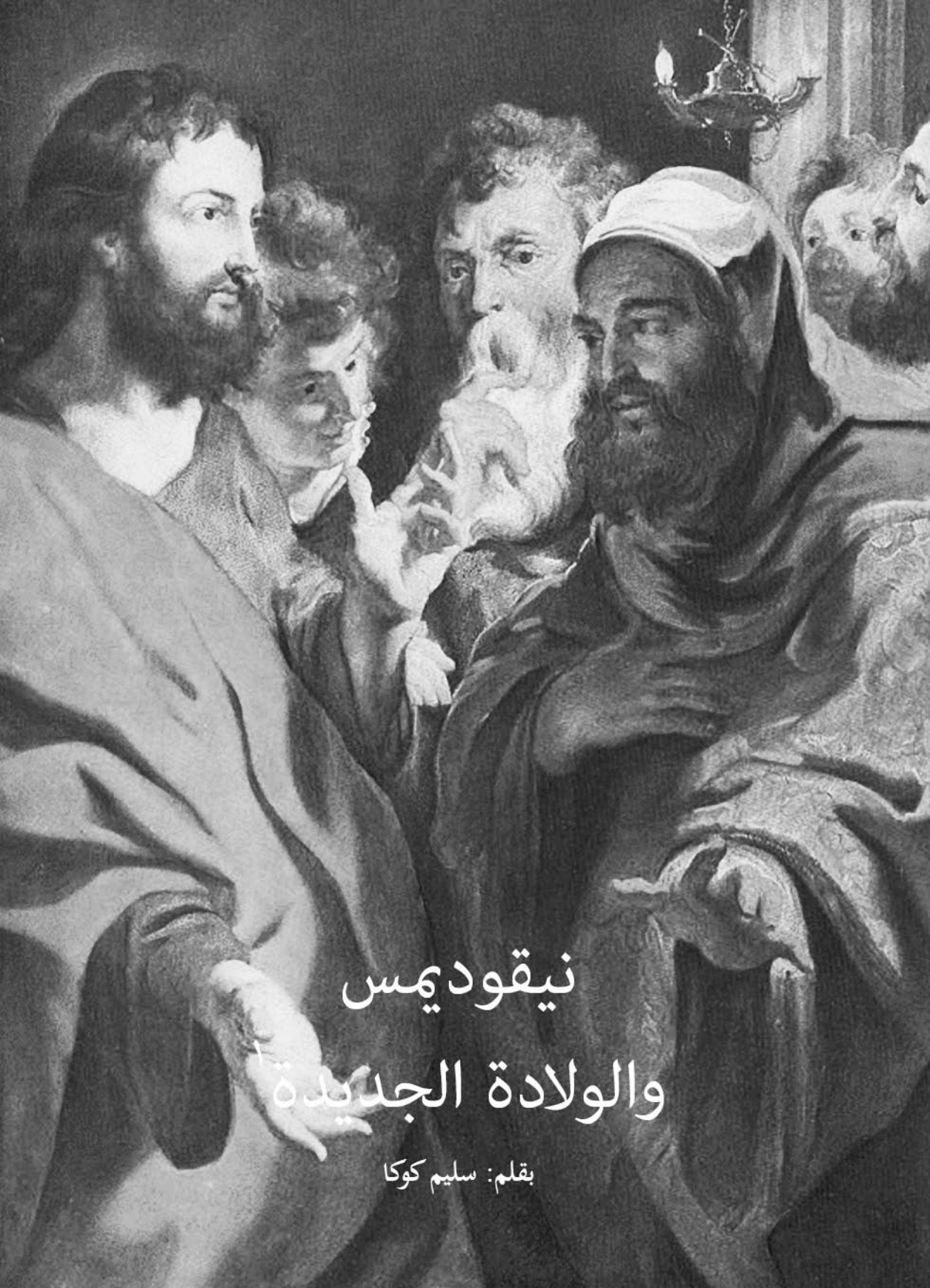

نيقوديمس

والولادة الجديدة[١]

بقلم: سليم كوكا

ليس غريباً أن قلنا ان الهدف الأعمق من الأعياد المارانية[٢] المقدسة المكررة التي وضعتها الكنيسة عبر تاريخها في طقوسها السنوية هو إتاحة الفرصة لكل مؤمن كي يعيد النظر في مسار حياته الإيمانية كلما حلّ هذا العيد أو ذاك، وليتفحص مدى النمو الذي بلغه في كل مرة. وبهذا نتذوق هذه الأعياد ونعطيها قيمتها الحقيقية من دون الانجراف إلى القشور التي باتت تأكل من لب هذه المناسبات الروحية. ألسنا إذن مدعوون في كل عيد إلى ولادة جديدة ننطلق منها إلى عالم أبناء الله وتجديد وتغيير علاقاتنا ونظرتنا إلى الآخرين كما دعا يسوع نيقوديمس إلى التغيير والتجديد الجذريين في نظرته إلى الله والآخرين وعلاقته معهم.

في هذا المقال سنكتشف العلاقة المتينة بين سرّ تجسد الله وميلاده بين البشر وبين سر الروح الذي كشفه يسوع لنيقوديمس بالرغم من موقع هذا الفصل في الإنجيل الرابع يأتي بعد عيد الفصح، ولكن علينا ان نتذكر دوماً أن كل شيء كُتب من منظار الفصح والقيامة.

سر الولادة الجديدة

لا نرى في الأناجيل الازائية (متى ، مرقس ولوقا) أي ذكر للولادة الجديدة بشكل مباشر ولا يتكلم يسوع عنها إلا أنه انطلاقاً من ايرميا (٣١) وتثنية (٣٠) يشبه كلمة الله ببذرة وضعت في قلب إنسان لتكون ثمة ينبوعاً لحياة خلق، جديدة (متى ١٣:١٨-٢٣). أضف إلى ذلك فأن يسوع يُنادي بضرورة العودة إلى حالة الطفولة للدخول إلى ملكوت السماوات (متى ١٨:٣)، إلا أن الإنجيل الرابع يعرض هذه الحقيقة صراحة بقوله: "يجب أن نولد ثانية لكي ندخل إلى ملكوت السماوات" (يو ٣:٥). لذلك لكي نتمكن من تحديد الحوار الذي حصل بين يسوع ونيقوديمس في إنجيل يوحنا يجب أن نربطه بالحوادث التي جاءت في الفصل السابق، إذ صعد يسوع إلى أورشليم بمناسبة الفصح إذ البشير يوحنا يخبرنا أنه: "لما كان في أورشليم في مدة الفصح، أمن باسمه الكثير من الناس لما رأوا من الآيات التي يأتي بها" (٢:٢٣-٢٥)، على أن يسوع لم يطمئن إليهم لأنه كان يعرفهم كلهم ولا يحتاج إلى من يخبروه عن أحد، فهو يعلم ما في الإنسان. وربط الإنجيلي كلامه بهذه الحادثة قائلاً: "وكان في الفريسيين[٣] رجل (إنسان) يدعى نيقوديمس وكان هذا من أركان مجلس اليهود فجاء ليلاً إلى يسوع". فلفظة إنسان المأخوذة من الفصل الثاني (السابق) تؤلف ما يُسميه المفسرون (اللفظة – الرّباط) أي أنها تربط النص الجديد بالنص السابق ربطاً مُحكماً وتُبين ان نيقوديمس هو أحد هؤلاء الكثيرين الذين آمنوا بيسوع بفضل الآيات التي أتى بها ولكن هذا الإيمان مقتصر على المظهر الخارجي للأشياء كما هو حالنا جميعاً فنبحث دوماً عن الآيات والأعاجيب ونعتبرها أساس إيماننا ودخول نيقوديمس في الحديث يؤكد هذا التأويل إذ يقول: "رابي نحن نعلم أنك جئت من لدن الله مُعلماً فلا أحد يستطيع أن يأتي بما أنت تأتي من آيات إلا أذا كان الله معه" (٣:٢). فهنا كان جواب يسوع قاطعاً: أنه لا يكتفي بهذا الإيمان الناقص بل يطلب المزيد وهكذا ينكشف لنا موضوع الحوار الذي هو الولادة الروحية بالإيمان الحقيقي بشخص المسيح، فكثيراً ما نؤمن بأن يسوع عظيم في تعليمه وفي كل ما صنعه ولكن لا نفهم أبعد من ذلك وهذا ما ينقصنا.

لقاء المسيح مع الحكمة اليهودية

لكي نفهم سياق وتصميم الحوار هذا علينا أن نعرف شيئاً عن شخصية نيقوديمس، أنه واحد من وجهاء اليهود وأحد أركان المجلس اليهودي، أنه شخصية نموذجية يُمثل فئة بأكملها وهو يُجسد شخصية (المُعلم في إسرائيل) تجسيداً كاملاً وحقيقياً حتى أن الأب ستانلي اليسوعي ذهب إلى القول أننا يمكن أن نعنون هذا المقطع بـ (لقاء يسوع مع الحكمة اليهودية). وهذه إشارة إلى أن نيقوديمس ليس فكرة تجريدية بل هو شخص حقيقي يوليه يوحنا الإنجيلي اهتماماً خاصاً، ففي الفصل (٧:٣٨-٥٠) يدافع بشجاعة عن يسوع

ويجلب لنفسه التأنيب: "أ وأنت من الجليل؟ أبحث تجد أنه لا يُبعث من الجليل نبيٌ" ويظهر من جديد على الجلجلة مع يوسف الرامي للقيام بدفن يسوع. ويذهب البعض الآخر إلى القول لربما يكون نيقوديمس هو الشخص الذي استضاف يسوع وتلاميذه في العشاء الأخير من دون أن يدري به اليهود مع عدم تأكيد ذلك في مصدر موثوق. أن نيقوديمس هو مثال المؤمن الخجول الذي يندس في الظل ليلتقي يسوع فلا يعلم به أترابه حتى بات يُضرب به المثل فيقول الناس في شخص لا يرغب أن يبين إيمانه بمبدأ ما أنه نيقوديمس. من جهة أخرى يرى البعض أن نيقوديمس لا يستحق مثل هذا الصيت لأن العتمة لا تعني التخفي إذ من المعروف أن علماء الشريعة عند اليهود كانوا يغتنمون الليل فرصة ليتبحروا في الكتب المقدسة ويتناقشوا فيها وهذه الحجة تكفي لأن نفهم زيارة نيقوديمس الليلية ليسوع ليسأله ما جاء في خلده في تلك الليلة من أسئلة كما تجول في مخيلة كل من يريد البحث والتقصي.

مراحل الحوار

يتدرج حوار يسوع مع نيقوديمس في ثلاث مراحل متشابهة البنية يبرز جوهرها كل مرة بعبارة: "الحق الحق أقول لك" (٣:٣، ٥، ١١).

فالمرحلة الأولى

يُثار شعور نيقوديمس إذ يسأل باندهاش كيف يستطيع الإنسان أن يولد وهو شيخ مُسن؟ فهو لا يعي الولادة من (علُ) وهي أولى عبارات الوحي.

والمرحلة الثانية

هي توضيح يسوع أن الولادة التي يعنيها هي ولادة (الماء والروح) وهذه أيضاً كلمات وحي لم يتمكن نيقوديمس فهم سرها لذا يُكمل يسوع: "فمولود الجسد يكون جسداً ومولود الروح يكون روحاً لا تعجب من قولي لك يجب عليكم أن تولدوا من علُ".

أما المرحلة الأخيرة (٣:١١-٢١)

ففيها يتكلم يسوع لوحده ليكشف لنيقوديمس سر ابن الإنسان (المرفوع) أنها ثالث كلمات الوحي وهي تعمق الاثنتين السابقتين وتقترح الإيمان الحقيقي كطريق وحيد لبلوغ الحياة. ويبقى مُعلم اليهود صامتاً أمام كلمات الوحي التي صعب عليه فهمها وينتهي الحوار فجأة إلى كلام يسوع كما تنتهي حوارات كثيرة في إنجيل يوحنا إذ يختفي المحاور عن الحلبة بدون أن يقول شيئاً، ليس لأنه لم يعد له أهمية ولكن المهم في نظر الإنجيلي هو كلام المسيح الذي تكشف سره أكثر من نفسية نيقوديمس أو أي مُحاور أخر.

تعليق

أن موضوع رمزية الولادة الجديدة كثيراً ما يتردد في أديان البشرية بحيث تجري العادات عند الأولين بأن تجعل من الصبي يافعاً ومن غير العارف عارفاً فيقول

أنه ولد ولادة جديدة أي بمعنى انفتحت مداركه وعيونه لأمور جديدة كان يجهلها سابقاً، وكثيراً ما ارتبط هذا المفهوم سلباً بمجموعة معينة ارتضت لنفسها بأن تقول أن عيونها انفتحت لدى الكنيسة الفلانية غير كنيستنا وأنه صار لديها (ولادة جديدة) إذ أصبحت تفهم المسيح وتعاليمه أكثر في مجامع غير مجامعها الأصلية على حدّ أدعاء هؤلاء. أنه لمن المؤسف الاعتقاد بأن التعمق ومحاولة البحث في سر الخلاص وتعليم المسيح يقتصر على مجموعة معينة دون غيرها وبمجرد ابتغاء ذلك يعني تغيير المعتقد والاسم والكنيسة. بينما نرى أن محتوى حوار يسوع مع نيقوديمس يُظهر ان المسيح المُعترف به في ملء حقيقة سره هو وحده الذي يفتح للإنسان طريق الخلاص، وأن الإنسان لا يبلغ هذا السر إلا بنعمة تجديد جذرية نابعة من الأعماق وليس في المكان والتسمية.

لقد ظن نيقوديمس كما نظن نحن أيضاً أن القضية سهلة فتصور أنه يعرف مفتاح ملكوت الله ويملكه بفضل الشريعة وتصور أنه قادر أن يدخله مع زمرته، وما مجيئه إلى يسوع إلا لأنه رأى فيه من خلال آياته مُعلماً كفؤاً: "نحن نعلم أنك جئت من لدن الله" أنه يقصد أن يسأله عن الشريعة ويناقشه في أمورها بينما يبدد يسوع كل أوهامه فأحس نيقوديمس أنه في حضرة شخص أكبر من (رابي) وأكثر من (معلم). فالذي يكلمه يحمل في ذاته سراً (من عل) لا يكشف كنهه إلا نورٍ (من عل) ونعمة هذا النور تفترض ولادة من عل أيضاً. والماء والروح هما قوامهما، فالماء يرمز إلى العماد، سر الولادة الجديدة، والروح يرمز إلى الروح القدس الذي يُولد الإيمان في قلب المعمذ حديثاً وينميه مدى حياته المسيحية فالاثنان ضروريان لتجديد الإنسان. فأن الجسد مدعو لأن يحقق الدعوة إلى الروح الذي يفوقه من كل ناحية وهذه الدعوة هي أساسية لكل إنسان (يو ١٢:٢٥). ومع ذلك فهو لا يعرفها إلا إذا كشفها له المسيح (يو ٣:٣١)، ولا يحققها إلا بنعمة الروح.

فما على الإنسان إلا بقبول هذا التناقض فيحقق ذاتهُ فوق ذاتهِ أي أن يعي معنى دعوته لأن يُشارك في حياة الله. أي فيما لا تلده أحشاء الأم، جسد وعليه أن يصبح روحاً، أجاب نيقوديمس مُتعجباً: "فكيف يكون ذلك؟". أننا نفهم مدى قلق المعلم في إسرائيل، أن يسوع يقر أن ذلك السر يفوق إدراك البشر ومع ذلك لا يشك بحقيقته فالتشبيه يبرهن ذلك (أن الريح تهب حيث تشاء فتسمع هزيزها ولا تدري من أين تأتي وإلى أين تذهب) تلك هي حالة مولود الروح (راجع سفر الجامعة ١١:٥).

فأحس نيقوديمس أنه في حضرة شخص (يسوع) أكبر من (رابي) وأكثر من (معلم).

خلاصة

أن تجديد الإنسان بروح الله هو أكثر غموضاً وأكثر إدراكاً من هبوب الريح ولكن ليس أقل منه حقيقة إذ أنه يُعرف من خلال نتائجه والمسيحي الحقيقي هو لغز للعالم الذي لا يعرف بالحقيقة عنه شيئاً كما لا يعرف عن المسيح (لا من أين يأتي ولا من أين يذهب) (يو ٨:١٤). أنه هنا حاضر في العالم وليس من العالم، أنه جسد ومع ذلك روح. لقد تعجب يسوع من كون مُعلماً معروفاً في إسرائيل يجهل هذا السر في حين أن قراءة الكتب المقدسة يجب أن تكون قد هيئاته

لذلك، فالعهد القديم يتنبأ في أكثر من مكان عن تجديد الإنسان بروح الله: "... وأُعطيكم قلباً جديداً وأجعل في أحشائكم روحاً جديداً" (حز ٣٦:٢٦). والعهد الجديد يجدد هذا الربط بربط سر تجديد الإنسان بسر المسيح أي بمجيء ابن الله إلى العالم وارتفاعه إذ يفتح منظر الميلاد المتواضع وعظمة الصليب بواسطة الإيمان، فالإيمان بالنسبة لكاتب هذا الإنجيل، أي يوحنا، هو أكثر من أمر عقلاني، أنه اندماج الإنسان بكليته قلباً وروحاً بتصميم حب الله الخلاصي الذي تحقق بابنه يسوع المسيح.

للبشر أبواب الخلاص فيهبهم حياته بالذات ومجده كقائم من الموت، غير أن التفتيش عن مصدر الخلاص يحتم علينا الغوص إلى أبعد من ذلك إلى الحب الذي دفع بالآب ولا شيء غير الحب لأن يعطي العالم أعز ما لديه أنه ابنه الواحد المولود ولا يعرف الإنسان قيمة هذا الحب ولا ينفتح قلبه إلا حينما يقف أمام

المصادر:
1. معجم اللاهوت الكتابي، مجموعة من الآباء، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، 1988.
2. الروحانيات، الأب روبير الكرملي، مجموعة محاضرات، مدرسة الصلاة كنيسة العذراء فاطمة، بغداد، 1993.
3. مجتمع يسوع: تقاليده وعاداته، الأب سامي اليسوعي، دار المشرق، بيروت، 1999.

---

1. لغرض معرفة تفاصيل الحوار راجع الفصل الثالث من إنجيل يوحنا 1- 21.
2. هي الأعياد المتعلقة بحياة يسوع اقتصاراً كعيد الميلاد، الختان، العماذ، والقيامة... الخ.
3. الذين كانوا ينادون بالفصل (الفرز) بين اليهود والوثنيين وجعل الشريعة الدينية تتدخل في جميع حركات الإنسان وسكناته ودخلوا في مجادلات كثير مع يسوع. وأنتقدهم يسوع كثيراً لحبهم التظاهر في شعائرهم الدينية.

منهجية مبسطة لقراءة

الكتاب المقدس

بقلم : الشماس الإنجيلي سليم كوكا

١٢ نوهرا كانون الثاني – شباط ٢٠٠٦

تُعتبر منهجية التعامل مع الكتاب المقدس مسألة مثيرة جداً وبالأخص في أيامنا هذه، إذ نرى تحسساً ملحوظاً في تعامل الكثير من المسيحيين مع الكتاب المقدس ويمكن القول أن بيوتاً كثيرة باتت تملك نسخاً وطبعات عديدة منه. ويُعتبر هذا قفزة نوعية خاصة بعد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ – ١٩٦٥) الذي لم يكتفِ في تشجيع قراءة الكتاب المقدس فحسب، لكنه بصورة خاصة طوّر الليتورجيا والصلوات الطقسية في أغلبية الكنائس باتجاهه تماماً، فباتت صلواتنا وتأملاتنا ممتلئة من نصوصه لا بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك وبشكل مفرح وهو إعادة اعتبار العهد القديم أيضاً بعد أن كان شبه مهمل، فحبذا يشمل هذا التعامل والحديث مع وعن الكتاب المقدس مجالات أخرى كالتعليم المسيحي والصلوات والأخويات ولقاءات العوائل والرياضات الروحية والسفرات الجماعية وكل لقاء يجمع فريق يلتقي باسم الكنيسة، وبذلك سنرى تحولاً عميقاً في علاقاتنا مع كلمة الله. عسى أن يساعدنا هذا المقال لنرقى بإيماننا إلى ما يليق بقراء حقيقيين في زمن هو بأمس الحاجة إلى هكذا قراء.

القراءة الاعتيادية للكتاب المقدس

في الماضي كان الاهتمام منصباً على قراءة العهد الجديد وعلى الأناجيل بصورة خاصة بينما كان العهد القديم مهملاً إلى حد بعيد فكثيراً كان يُسمعُ القول: "أن ما يعنينا هو العهد الجديد وليس لنا شأن في العهد القديم". بينما لا يُرى مصدراً موثوقاً لمدعي هذا القول إذ نرى يسوع ذاته في إنجيل لوقا يدعو تلميذي عماوس إلى قراءة العهد القديم على ضوء أحداث القيامة، وما الأناجيل بحد ذاتها سوى محاولة تلاميذ يسوع لفهم العهد القديم من خلال حياة وأعمال وأقوال يسوع الناصري.

كما كان التعامل مع الكتاب المقدس حتى وقت قريب من شأن الكهنة والرهبان فقط وقد لقي هذا الموقف الكثير من النقد من بعض المثقفين الذين ظهروا هنا أو هناك آنذاك ولربما كانوا مصحين في نقدهم، إذ سرعان ما اكتشف المؤمنون ومن ضمنهم الاكليروس أن وجود الكتاب المقدس في متناول الجميع لا يُقلل من قيمته بل يحقق أهدافه العميقة وأنه في كل مرة عادت الكنيسة إلى الكتاب المقدس تجدد شبابها، فهو كنز لا يُثمن لتغذية الإيمان والرجاء والمحبة. ونعني بالقراءة الاعتيادية، قراءة الكتاب المقدس كأي مقروء أخر نطالعه لزيادة معرفتنا أو كحب إطلاع أو لتكملة واجب مطلوب منا لربما في معهد أو مدرسة خاصة دون الذهاب بعيداً إلى روحية الكلمات وما ورائها. وما أسهل هذه الطريقة وأسذجها وليس غريباً إن قلنا أن جميعنا يقع في تجربتها دائماً لكوننا نهاب الدخول في عمق الكلمات فنبق على مستوى سطح السطور، ومع هذا فأن هذا النوع من القراءة لابد منه فهو بداية مرحلة أعمق.

"القراءة الرهبانية" للكتاب المقدس

هذا النهج من القراءة عمره حوالي الألف سنة، وهو يتطلب جهداً ووقتاً ولكن يمكننا اليوم أن (نفسخه) ونبسطه بشكل يتلاءم مع الظروف ومستوى كل واحد منا مهما كان أسلوب حياته فبذلك لن يعود حكراً على الرهبان على حد ما نفهم من اسم هذا الأسلوب بل سيكون ملائماً لجميعنا بمنتهى البساطة والسهولة. لأن هذه القراءة هي أساس كل صلاة، وهي تعتمد على ثلاثة مراحل عملية هي: **القراءة، التفكير والتأمل.**

فالقراءة، هي حينما نقرأ صفحة معينة وبيدنا قلم رصاص أو ملون ونسحب خطاً تحت الكلمات التي تُثير اهتمامنا، ويمكننا أحياناً أن نركز على الأسماء وأحياناً أخرى على الأفعال والعواطف أو على الكلمات الأساسية. بهذه الطريقة التي دأب آباء الكنيسة على دعوة المؤمنين إليها (كقراءة مقدسة) سوف يستيقظ انتباهنا ويصبح نظرنا حاداً وتتحفز لدينا قابلية الإحساس ونكتشف أشياء جديدة في نصوص كنا نتصور أننا نعرفها حينما كنا نقراها قراءة اعتيادية فتظهر لنا جديدة خاصة إذا استسلمنا للروح القدس فنفهم ما يقوله لنا هذا النص في إطار النصوص الأخرى وفي داخل شمولية الكتاب المقدس ككل.

أما **التفكير**، فهي المرحلة التي نركز فيها مخيلتنا على القيم التي تبرز من النص. في القراءة نضع في عين الاعتبار المعطيات التاريخية والجغرافية والثقافية للنص، بينما مع (التفكير) نضع الرسالة التي يوجهها أو يبتغيها الرب من خلال هذا النص الحيّ وماذا يكمن وراء هذه الكلمات والأعمال والصور التشبيهية وأخيراً ماذا يريد ان يقوله النص لي وهل هذا جليّ أم فيه شيء من الغموض؟

وتأتي المرحلة الأخيرة لهكذا نوع من القراءة المقدسة، وهي **التأمل**، التي هي مسالة البقاء في النص عن حب والتلذذ برفقة الحبيب المختفي وراء هذه الرسالة، فهو يحبني وقد أرسل لي كلمات بشرية بطريقة أو بأخرى. بالرغم من أن المتكلم هو ابن الله ولكنه منحني الروح القدس ولابد من الإشارة إلى أن التأمل هو وجه أخر من أوجه السجود والتسبيح والدهشة والصمت أمام المسيح القائم من القبر وكاشف الله الآب. والتأمل هو قمة كل صلاة نؤديها عندما تتساقط الكلمات وتصبح تافهة.

ما القصد من وراء الكم الهائل من القصص والحكايات الأسطورية والأزمات والكوارث الواردة في الكتاب المقدس؟

عملياً، هذه المراحل الثلاثة، أي: القراءة، التفكير والتأمل، ليست مفصولة عن بعضها البعض، لكننا ميزناها هنا ليسهل على كل واحد الدخول في تمرين (القراءة المقدسة) العميقة نوعاً ما فهي تُعطي معنى لكل قراءة نقوم بها وبالتالي تُعطي معنى لأيامنا ولخبرتنا. وليس من الشرط دائماً أن تكون قراءتنا للكتاب المقدس متشابهة في كل الأيام بل في بعض منها من الممكن أن نتوقف أكثر من غيرها أمام نص معين أو نركز حيناً على القراءة وحيناً أخر على التأمل أو التفكير ولا ضير إن أصابنا الشرود والطيش أثناء التأمل في النص إذ هذه مسألة طبيعية ولكن الأهم هو العودة إليه ذهنياً ثانية والبقاء ضمن الأجواء والصور والتعابير التي تجذب الانتباه.

أن هذه التقديم السريع لهذا النوع من (القراءة الرهبانية) المقدسة قد لا يعطي الفائدة الروحية لأقصى درجاتها أو قد تكون مملة أو مفقودة من الديناميكية التي يرجوها بعض القراء الذين يودون الذهاب أبعد في تحليلات النصوص

وعمقها، لذا نود التنبيه بأن هناك منهجيات مختلفة ومتنوعة ذات تقسيمات أكثر تفصيلاً مثل الصمت والهضم والنقاش والعمل... الخ. فهناك رهبانيات ومجاميع شبابية في بلدان وأماكن مختلفة تمارسها بطرقها الخاصة ولا مجال لذكرها هنا إذ كلها تهدف إلى أخذ الفائدة الأكبر من هذا الزاد الروحي وكشف أبعاد كلمة الله الموجهة إلى كل إنسان في كل زمان ومكان. فالجماعات المسيحية على اختلاف لغاتها وثقافتها قد وجدت على مرّ العصور وتجد اليوم غذائها في هذا الكتاب الذي تتأمل في بلغته وتأوّنه.

تساؤلات وتحليل

كثيراً ما تُثير قراءة الكتاب المقدس العديد من الأسئلة مثل: كيف يكون مقدساً إن كان قد دون من قبل أشخاص مثلي؟ ما هو أدنى مستوى من الثقافة أحتاجها للتعامل مع هكذا كتاب؟ هل الله يخاطبني أنا أم أن الكلام موجه إلى من يعنيه الأمر؟ ومن هؤلاء؟ ما القصد من وراء الكم الهائل من القصص والحكايات الأسطورية والأزمات والكوارث الواردة فيه؟ كيف يمكنني أن أربط بين قراءتي وحياتي اليومية؟ وإلى أخره من الأسئلة التي لا يمكن حصرها.

عزيزي القارئ، لربما تتعجب من أن أطرح هكذا أسئلة في خاتمة هذا المقال المتواضع ولكن نعتقد أن معظم قراء الكتاب المقدس يواجهونها وخاصة أولئك الذين يريدون أن يعوا ما يقرؤون كي يصبح الكتاب مقدساً قولاً وفعلاً.

أن الجواب على هكذا أسئلة لا يمكن أن يأتي بسهولة أو بجواب من سطر أو سطرين بل من خلال خبرة حياتية ومسيرة طويلة ومضنية مع الأسفار المقدسة التي كتبها مؤمنون من أجل مؤمنين على مر العصور لينقلوا لنا هذه الخبرة المليئة بالقناعات الإيمانية. أما لترجمة الكتاب المقدس إلى الواقع فأنه يشبه كمن يتعامل مع صديق جديد حيث يحتاج إلى مدة معينة لكي يكتشفه ويألفه ويتعود عليه ففي العشرة يكمن سر المعرفة والألفة والفرح وباطل من يقول أعرف صديقي جيداً ما لم يعاشره جيداً، هكذا لن نتعرف إلى مسيحيتنا بشكل صحيح ما لم نتعود على إعطاء الوقت الكافي إلى الجلوس في مرابع هذه المكتبة الواسعة المؤلفة من ٧٣ كتاباً، فهي إذن مكونة من كتب عديدة لها أساليبها المختلفة وفيها قصص وقوانين وأساطير وحكايات وحكم وصلوات وأغاني... الخ. كلها من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا، وتكوينها أمتد على أكثر من عشرة قرون وتُنسب إلى عشرات المؤلفين المختلفين بعضها وُضع بالعبرية والأخرى بالآرامية واليونانية، صدرت عن أناس مقتنعين بأن الله دعاهم لتكوين شعب يُمثل مكان في تاريخ البشرية بتشريعه ومبادئه في الحياة الفردية والجماعية فالكتاب المقدس ليس سجلاً للتاريخ بل تاريخ إيمان لشعب ولأفراد ذوي رسالة اكتملت بشخص يسوع المسيح المتجسد الذي أحب أن يكون المُحب ويكون وإياه واحداً. ولا يمكن ان يكون الكتاب المقدس مقدساً إن لم يؤخذ بكامله على حد قول باسكال: "الكتاب المقدس قطعة واحدة وليس قطعاً متناثرة".

خلاصة

أننا لا نقرأ الكتاب المقدس بالطريقة التي نقرأ فيها دليل هواتف أو رسالة شخصية أو عائلية أو رسالة عابرة موجهة إلينا. من الممكن ان يقرأ الكتاب المقدس أي إنسان من دون أن يُقاسم الإيمان فيه، فيعده كنزاً من كنوز البشرية وأدباً ملذاً بينما المسيحي يرى فيه شيء أخر، قصة حب بين الله والبشر، فإذن ليست قراءتنا كقراءة عالم تاريخ واختصاصي في المعتقدات الدينية إنما كرسالة حب شخصية تُنير إيماننا وحياتنا لأننا نؤمن بأن الكتاب ملهم بروح القدس ويستسلم القارئ لذلك الروح ليفهم الفحوى، فالحب المكنون يضيء القراءة ويكشف ما بين الأسطر.

المصادر

١. الكتاب المقدس، (هوامش)، الطبعة الكاثوليكية، دار المشرق، بيروت ١٩٩١.

٢. التثقيف الدائم في رهبنة القديس عبد الأحد، ج٥، مجموعة محاضرات، محاضرة الأب يوسف توما: كيف نتعامل مع الكتاب المقدس، بغداد، ١٩٩٥.

٣. فرح الإيمان بهجة الحياة، مجموعة محاضرات الأب فرانسوا فاربون، بيروت، ١٩٨٦.

٤. مجلة الفكر المسيحي، عدد ٣٦٩ — ٣٣٧٠، بغداد.

الروح القدس في الروحانيات الشرقية

بقلم: الشماس الإنجيلي سليم كوكا

ظل الروح القدس لوقت طويل ذلك الشخص الإلهي المنسي والغامض في الثالوث الأقدس، فالتقوى المسيحية أعطت الأهمية للآب الذي كشفه الابن المتضامن معنا في كل شيء عدا الخطيئة، مع أن الروح القدس كان شريكاً للآب والابن في كل شيء في الخليقة، والتقديس والخلاص: "وكان الروح يرفرف على وجه المياه" (تك ١:٢).

زمن الروح القدس

أنه لمن المفرح أن يعود الروح القدس إلى الواجهة وخاصة عند أولئك المؤمنين المهتمين بالروحانيات بشكل عام والشرقية منها بشكل خاص، فمن دون الروح (الروح القدس وروح الإنسان) نفقد أهم عناصر التوجه إلى عمق الإنسان وباطنه وهذه من عناصر الروحانيات الشرقية المهمة. فإذا كان الزمن الممتد حتى مجيء يسوع الابن قد سمي: بـــ (زمن الآب) وفترة التجسد بـــ (زمن الابن) فأن ما بعده وحتى يومنا وهو عهد الكنيسة فأنه سمي بحق بـــ (زمن الروح القدس). حيث نرى ديناميكية الابن العميقة والمستمرة في كنيسته وفي العالم كله. وقد دعا المجمع الفاتيكاني الثاني في بداية ستينات القرن الماضي إلى (فك قيود الروح القدس) لتنقية هواء الكنيسة وفتح رئتي الكنيسة باستقبال هذا النسيم المنعش. فهو (الريح) بكل ما في هذه الكلمة من حركة وحياة، أنه عكس المادة الثقيلة الجامدة، فهذه الريح تجلب المطر في الصحراء وتُخصب الأرض فتزهر الحياة، أنه (نفس الله) في الخليقة الذي اختبره الآباء الروحانيون الشرقيون، فتلذذوا طعم وجوده في باطنهم.

عسى أن يكون هذا الطرح المتواضع دعوة لاكتشاف هذا النسيم الذي يسكن هياكل أجسادنا وهو الذي يجعلنا في علاقة بنوية مع الآب.

روح الله وروح الإنسان

أن الروح القدس قبل أن تُنسب إليه صفة خاصة كالحب الإلهي كما في اللاهوت الغربي أو الحياة الإلهية كما في الشرق، فأنه الله نفسه، فهو يعطي ذاته لكل البشر، وما العطاء هذا إلا صفة تعلمناها ببساطة عن الله. حيث نراه يُعطي للبشر من قوته وبصورة مؤقتة ليقوم بعض من الناس بأعمال غير عادية كالنبوات أو المعجزات مثلاً، أما في العهد الجديد فنرى روح الله يحل على المسيح بصورة دائمة (يو ٣:٣٤) ومن المسيح انتشر الروح إلى قلوب البشر جميعاً حسب نبوة حزقيال (٣٦:٢٦) فيمنحهم الله نفسه ليحيا في أعماقهم ويقدس حياتهم.

والروحانيات الشرقية ميزت ما بين الروح القدس وروح الإنسان بالرغم من التماثل بينهما:

فالروح القدس هو الله لكونه يعطي ذاته فهو حركة عطاء غير متناهية موجهة نحو الإنسان، أما روح الإنسان فهو في الإنسان ما يستطيع أن يوجهه نحو الله وبواسطة روح الإنسان يؤثر الروح القدس بصورة متنامية على الإنسان كله، وهو لا يحيا حقاً إلا بقدر ما يعطي ذاته لغيره ويتوجه نحو الله.

ولفظة روح الإنسان بمعناها الأصيل، تعني: الريح، وبالتالي: (نفس الإنسان) الذي يشهد أنه حيٌّ والذي يأتي من الله ويعود إليه عند وفاة الإنسان. أنه يشير أيضاً إلى شخصية الإنسان كلها وإلى أعمق سر من هذه الشخصية وما يكمن في داخله من أمور قد لا يمكنه من أن يعبر عنها كلامياً.

أما الروح بمعناه الشامل فهو ذلك الجزء الأكثر شخصية ومبدأ شعوره العميق وحريته، وهو ذروة الكيان الإنساني التي تتصل بالآخرة. فالنفس تحي الجسد وتجعله نفساً حيَّة أما الروح فأنه يجعل كيان الإنسان كله روحياً في طريق وجوده وفي انفتاحه لما هو إلهي. وفي الروحانيات عادة ما يستعمل مفهومان لكلمة (روحي) أو (روحاني). فالمفهوم الأول هو نسبة إلى الروح القدس أما المفهوم الثاني فهو نسبة إلى الجزء الأعمق في الإنسان.

ولقد تعودنا في حياتنا أن ننسب صفة (الروحي) فقط إلى الفعاليات التي تخص أموراً كنسية أو نشاطاً دينياً مؤقتاً كالاشتراك في القداس أو في الصلاة أو في التأمل...الخ. ويعود هذا إلى التأثير الفلسفي اليوناني المتوارث لاستعمال كلمة (روحي). أي ما ليس مادياً،

فمثلاً يقال عن نفس الإنسان: إنها روحية لأنها ليست مادية كالجسد أو اشتركنا في أعمال روحية وليست مادية، بينما يشدد آباء الكنيسة الروحانيين على عدم دقة ذلك التعبير. إذ أن تأثير الروح القدس مدعو إلى الانتشار في كيان الإنسان كله وإلى تقديس حياته كلها وليس جزء منها. لذا نرى أن الآباء الروحانيين الشرقيين مضوا إلى درجة عالية من إعطاء ذواتهم قلباً وروحاً إلى المثول أمام العزّة الإلهية، حتى باتوا جزءاً من كل، كما نكتشف ذلك في الخطبة رقم ٥٠ ليوحنا الدالياثي أحد الروحانيين الشرقيين البارزين:

صلاة ليوحنا الدالياثي[1] (الخطبة ٥٠):

"أيها المسيح يا جمال الآب أجعل أن ندخل بواسطتك إلى معبد هيكل نفوسنا (أي القلب) ونشاهدك فيه يا كنز الحياة المخفي في داخلنا.. أن الذين يتعبون في البحث عن مشاهدتك في داخلهم سيستريحون قريباً ويتمتعون بها. يا من شرعت السير في هذا الطريق لا تضجر من صعوبات البداية، عندما تريد أن تجبر روحك على الدخول إلى عمقك ولا يستطيع ذلك. لا ترجع إلى الوراء ولا تلتجئ إلى التسلية الآتية من تشتتك في الخارج ولكن إذا ثابرت بباب قلبك وأنت تحدق نظرتك فيه مستشرقاً في داخلك تلك شمس الإفراج، أعني المسيح الذي يعطي النور للعميان ويجذبك إليه. حدق نظرتك إذن إلى داخل قلبك ومنه سيشرق الله في نفسك. فإذا نظرت إلى هناك باستمرار، فهناك ستجد ملكوتك، أعني أنك ستجد في داخلك الله الذي هو ملكوتك".

فإذا كان الزمن الممتد حتى مجيء يسوع الابن قد سمي: بـــ (زمن الآب) وفترة التجسد بـــ (زمن الابن) فأن ما بعده وحتى يومنا وهو عهد الكنيسة فأنه سمي بحق بـــ (زمن الروح القدس).

خاتمة

حينما نذكر الروح بشكل عام تتبادر إلى أذهاننا مسألة الصلاة العميقة، فحسب تعليم الروحانيين الشرقيين علينا أن نوجه نظر الروح نحو القلب الجسدي وذلك لوجود تطابق بين مواقف الجسد والمواقف الداخلية، فهناك تطابق بين نظر العيون الجسدية ونظر الروح وكذلك بين القلب الجسدي ومركز النفس العميق. وأن دور الروح (روح الإنسان) في هذا النوع من الصلاة لا يقتصر على النظر، لأن الروح بذاته هو حقيقة ديناميكية، أنه حركة صادرة من أعماق كيان الإنسان، حيث لا توجد معرفة دون حب ولا حب دون معرفة. لذلك قد تكمن مأساتنا حين نتجاهل الروح القدس، إذ بدونه تتوقف الحياة ويتجمد كل شيء ويصبح الله (صنماً) وتكون بداية انجماد المؤمنين أولاً ثم الكنيسة مع نسيان الروح القدس. ولكن حينما يأتيها الروح تتحرر فيهب عليها وينفخ في أشرعتها فيقوم أبنائها من جديد وتعود الحياة في العظام الجافة.

المصادر

١. مجموعة محاضرات للأب روبير الكرملي، الروحانيات، مدرسة الصلاة في كنيسة العذراء فاطمة، بغداد، ١٩٩٤.

٢. الأب البير أبونا، ومضات منشورات رهبانية بنات مريم الكلدانيات، بغداد، ٢٠٠٤.

3. John J. O'Donnell, Sheed and Ward, The mastery of the Triune God, London, 2001.

العائلة المهاجرة أمام تحديات الزمن

بقلم: الشماس الإنجيلي سليم كوكا

أن من يحاول أن يفهم ما يحدث لوضع عوائلنا يقف حائراً أمام تلاطم المشاكل التي تعاني منها العديد من أسرنا المسيحية المهاجرة لأوطانها قاصدة بلداً ذو ملاذ آمن لمستقبلها المعيشي من جهة، ومُحيراً لأسلوبٍ تربية أجيالها الصاعدة من جهة ثانية. وليس عجباً إن سمعنا من أباء وأمهات كُثر يلعنون اليوم الذي فيه تركوا موطنهم حينما يشعرون أن أبنائهم خرجوا عن طاعتهم وليس هناك في الواقع ولا في الأفق من قانون يُرجعُ مقومات هذه الطاعة التي يتحسر لها الأهل.. ويبقى السؤال: هل من بقي من أرباب البيوت في الوطن الأم لا يزال يتمتع بالسلطة على تصرفات العائلة أم أن رياح التغيير والحرية والديمقراطية قد ضربت كل جدران أُسرنا إن كانوا في الوطن أم في الشتات؟

التحدي الرعوي واللاهوتي

أن أكثر الساعات حزناً ووهناً في حياة رب كل عائلة هي حينما يشعر بالعجز في إيصال أمانة القيم والأخلاق والإيمان والتقاليد التي تسلمها إلى أبنائه، ويراوده الخوف والهلع مما تؤول إليه أوضاع عائلته، فتموت كلماته ويتجمد لسانه ويبس حلقه كلما عجز عن ذلك. وما أكثر الأوقات التي يصطدم فيها بمواقف وتصرفات أبنائه الشبان الذين لا يكترثون في الكثير من الأحيان لرضا الوالدين.

أمام هكذا تحدي يرغب الوالدين، بشكل ضمني، أن يبرز دور الكنيسة الرعوي في إحاطة أبنائهم الشبان والصغار، وأنفسهم أيضاً وبالأخص حينما يتزلق أحدهم في الطريق الغير السوية والمناسبة كالكحول والإدمان والقمار وما شابه. وما أكثر الحالات التي يلجأ فيها أحد الطرفين أو كلاهما إلى الكنيسة لحل هكذا أزمات وطبعاً يبقى الحل رهيناً بمدى التجاوب الصريح والجدي من كلا الطرفين. أما من ناحية الأبناء بمختلف أعمارهم فغالباً ما نسمع عتابات الأهل والوالدين حول تقصير الكنيسة في فتح مجالات احتواء أبنائهم بشكل يضمن تربيتهم الصحيحة، بالرغم من أن هكذا عتابات غالباً ما تكون في غير محلها وأحياناً تكون تهرباً من المسؤولية الأسرية.

فالأسرة ككل ما لم تتعاون وتتجاوب مع توجهات الكنيسة فسيصعب أن تأخذ الكنيسة وحدها دورها الرعوي الصحيح في احتواء الأمور وكذلك إن لم تسند وتشجع عوائلنا كل نشاطات الكنيسة بمختلف أنواعها فستكون فوائدها محدودة جداً. لذا فأن مسألة تجاوز التحدي الرعوي واللاهوتي يتطلب اقتراب أسرنا بكل أفرادها إلى الكنيسة وإعطاء هذه العلاقة أهمية قصوى ليس فقط في حالة الأزمات التي تمر العائلة بها، بل في الحالات الطبيعية أيضاً. فكلما كان الوالدان قريبان من الكنيسة شعرا بالتزامهما نحو بعضهما البعض ونحو عائلتهما. وهكذا بالنسبة للأبناء، فكلما كانوا قريبين من الكنيسة تعلموا شيئاً بناءاً ومفيداً يُضاف إلى التعليم الأسري والعائلي فيسند بنيانهم ويعزز التزامهم الأخلاقي والسلوكي والروحي، فبذلك تكون قد شاركت أسرنا الكنيسة بشكل فعال في الحفاظ على هويتنا المسيحية المتميزة لعاداتها وتقاليدها بما يتلائم والمجتمع الجديد الذي نعيش فيه فيكتشف الوالدين مسؤولياتهما والأبناء مواقع الطاعة التي عليهما إبرازهما للوالدين، فبذلك نحدُ من حالات الانحراف الذي ينجر إليه أي فرد في العائلة ويساعد في إبراز الاحترام المتبادل بين أفرادها.

القيم والأعراف

كثيرة هي الضغوط التي تمارسها الحياة المعاصرة على حياة عوائلنا والأكثر منها هي المعطيات التي أفرزتها الهجرة بسلبياتها وإيجابياتها. ولكن أحيانا قد لا تكون المشكلة في مجموع المعتقدات والمواقف، والقيم والاعراف التي تسود هذا المجتمع، وإنما ما يتوجب فهمه هو كيفية جعلها حيّـة وفعالة ومتجانسة مع الأفكار والعواطف التي تتخلل هذا المجتمع الحديث. ولقد كُتب الكثير عن هذا التجانس ونوقش مراراً وتكراراً، ولقد كثرت تساؤلات العديد من الأسر عن المقاييس المناسبة لتنشئة أبنائها. فلقد اختلطت المعايير بين عقلية الوالدين اللذين أمضيا معظم حياتهما في بلدانهم وجيل النصف[1] من جهة وبين الجيل الجديد المتشرب بثقافة هذا البلد الجديد من

جهة ثانية، فصراع الأجيال محتوم خاصة إذا كان في العائلة الواحدة أكثر من جيلين. فالمجتمع الجديد يُقيّم المبادرات الخاصة ويعترف باستقلالية الفرد وتميزه وحريته، بينما يحاول الأهل أن يعززوا من قانون التضامن والتماسك بالرغم من سرعة عطب هذا القانون إن لم يكن مبنياً على الوعي المطلوب بما يجري حول العائلة. أنه لمن الصعب تحديد القيم والأعراف ما لم نتعود العودة إلى جذور وأسس ثقافتنا فنراها بعين مختلفة لما نعتقد ونفهم سطحياً، فإن كانت هذه القيم نابعة من جذور عميقة وأصيلة فأنها ستلائم كل الأمكنة والأجيال أما إن كانت دخيلة علينا فقياسها هو مزاجنا وشخصيتنا، فهنا يجب الحذر وإلاّ أوقعت أجيالنا الجديدة وعوائلنا في مطب الانفصام والتناقض وعدم استقرار الذهن. فحينما نشعر أن شخصاً ما في العائلة قد (انحرف) علينا أن نفهم من أية وجهة نظر حكمنا عليه (بالانحراف) وما هي القيم والأعراف التي انحرف عنها ثم بعد ذلك نحكم على الموضوع.

أن أهم ما يمكن التوصل إليه في العلاقات العائلية والاجتماعية والكنسية هو (الالتزام) الذي يقتنع به المرء بالقيم وأن يكون بمقدور كل واحد أن يهضمها شخصياً لتصبح جزءاً من شخصيته أينما كان، سواء في هذا البلد أو في البلد الأم أو بلدان الانتظار. أن الأعراف والتقاليد والقيم لا تكون ناجحة وناجعة ما لم تجد سبيلاً إلى بواطن المرء ذاته، فآنذاك يتحمل مسؤولية انحرافه، بالرغم من أن الانحراف لا يعني نهاية العالم، فكم من شباب عاشوا مراهقة صعبة (فالتة) تحولوا إلى أناس صالحين ونافعين، والكنيسة عادة لها منظورها الخاص في هذا الشأن ليس لما يخص المراهقين على سبيل المثال بل إلى جميع الشرائح دون فرق، إذ أن المستقبل هو المقياس وهو الرهان فليس من الصحيح أن ننعت شبيبتنا بالقول: «ستكون متسكعاً كل عمرك ولن يكون فيك خيراً». بل أن يحدونا الأمل في إمكانية أصلاح كل أنواع العطب بالاهتمام والمتابعة، نعم إن المستقبل نشتريه بجهود اليوم، ولكن تفاؤلنا يبنى أيضاً على أن صحوة كل فرد ممكنة في كل وقت ليستفيد من فشله ويتعلم منه دروساً لاستقرار مستقبله.

خاتمة

أننا نلاحظ ونسمع في الآونة الأخيرة أن الكثير من البلدان التي نسميها بالمتحضرة باتت تصب جلة اهتمامها على الخلية الأكثر أهمية في مجتمعاتها آلا وهي العائلة، لأنها باتت تؤمن بأنه لم يبق هناك من سبيل لحل أزماتها الاجتماعية والأخلاقية والأدبية وحتى الاقتصادية التي تعاني منها مؤسساتها سوى الرهان على الأسرة المتماسكة والملتزمة. في الوقت الذي ساد الانفلات والانفكاك معظم العوائل في المجتمعات المتقدمة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وساعدت قوانين هذه الدول على هذا التفكك في حينه بشكل أو بأخر باتت الآن تعيد النظر في الكثير من تلك القوانين لاستعادة مكانة العائلة المتماسكة في المجتمع وبنائه الصحيح. فالمؤسسات والنوادي والمنتديات وإلى أخره من المنظمات الاجتماعية التي انشأتها بقيت عاجزة عن أغناء المجتمعات المتقدمة أدبياً وأخلاقياً، لا بل في الكثير من الأحيان كان البعض من هذه المؤسسات سبباً في الفساد والانحراف والجريمة في الكثير من المجتمعات. والكنيسة بالرغم من إيمانها الدائم بمكانة العائلة على مر الزمان باتت هي الأخرى اليوم وأكثر من أي وقت مضى تعمل على إبراز دور العائلة والاهتمام بها وعلى وحدتها كنواة أولى للكنيسة فبدون أسرة متماسكة ومتحدة وملتزمة تبقى الكنيسة جامدة وفارغة ومشلولة، ألَمْ يذكر أحدهم ما معناه إن أردنا إعادة ملأ أبنية كاتدرائياتنا وكنائسنا العديدة بالمؤمنين كماً ونوعاً فما على الكنيسة إلا أن تعي دورها الرعوي تجاه العائلة المتحدة والمتماسكة من جهة وأن يعي الأباء والأبناء في العائلة المسيحية أن قوة كنيستهم ونشاطها يأتيان من قوة تماسك ووحدة أسرهم من جهة أخرى.

---

١. الذين أمضوا ما يقارب نصف أعمارهم في بلدهم الأم والأكثر منه في البلد الجديد.

التناول الأول
يوم متميز في حياتنا

بقلم: الشماس الإنجيلي سليم كوكا

صبيحة يوم السبت، في الثلاثين من أيلول الماضي، صدحت حناجر ما يقارب الثمانون من أطفالنا من بنين وبنات وهم يرتلون بصوتهم الرّنان المزمور ١٥٠: «شباح لـــمريا بقدشيه هلليلويا: سبحوا الرب في قدسه». ينشدون يدخلون باحة الكنيسة في صفين متناسقين وإذ يقتربون من الهيكل ينشدون: «ثيللي اذ يوما د هويليه طالن مخلصانا د طموخ بوساما دلا كيثي لدراكا بهونا: هو ذا اليوم الذي ولد لنا فيه مُخلص، لنتذوق السعادة التي لا يدركها عقل». ومن ثم كملائكة متراصة أمام المذبح أكملوا خدمة القداس الإلهي إلى أن حان موعدهم الأول ليقتربوا إلى «الاوخارستيا»، ليتناولوا جسد ودم المسيح الذي يقتبلون بعد منحهم سر التوبة وبعد تهيئتهم لهذا اليوم المتميز طوال ما يقارب سنة دراسية كاملة. حيث وهذا الحدث ليس بجديد على الكنيسة ومؤمنيها وهو يتكرر كل سنة وأحياناً أكثر من مرة في بعض الكنائس. مجاميع تلي مجاميع أخرى على مدار السنين والأيام، أطفال يُهيؤن كل سنة ويهتم بهم كاهن أو مجموعة من المعلمات والمعلمين وبمساعدة الأهل، ويتلقون خلال فترة تهيئتهم مجموعة من التعاليم الأساسية التي تعبّر عن اعترافهم وإيمانهم بالمسيح وكنيسته، وانفتاح أعينهم إلى تفهم تعاليم الرب وإدراكهم لما هم مزمعون عمله وهو تناولهم لجسد ودم مخلصهم يسوع المسيح. إذ نرى في تاريخية التناول الأول أن المجمع اللاتراني الرابع ١٢١٥ أكد على إيجابية الممارسة الجديدة التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية قبل هذا التاريخ والتي أوقفت فيها تقليد مناولة الأطفال الرضع أثناء عماذهم (كما هو التقليد عند الكنائس الشقيقة الأخرى لحد الآن)، وألزمت المتقدم إلى مائدة الرب أن يكون قد بلغ سن الرشد أو التمييز بين الصحيح والخطأ وأن يكون بمقدوره الاعتراف بخطاياه، فمنذ ذلك التاريخ أصبح تقليد التناول الأول جارياً في جميع الكنائس الكاثوليكية واتخذته الكنيسة الكلدانية لدى انضمامها إلى روما في القرن السادس عشر. ويرى الكثيرون

أن أحد مقومات نشاط الكنيسة وديمومتها وبهجة مؤمنيها يكمن في هؤلاء الأطفال المؤهلين للتقرب إلى مائدة الرب وإشهار إيمانهم على الملأ وتواصله مع إيمان آبائهم وإقرارهم لإنتماءهم الذي قبلوه في المعمودية؛ أن صادف كون المتقدم إلى التناول الأول غير معمذ إلى ذلك التاريخ فيجب تدبير عماذه قبل يوم مناولته الأولى بفترة قصيرة، وأن يتقدم الاعتراف التناول الأول، إذ نقرأ في المرسوم الذي أطلقه البابا بيوس العاشر عام ١٩١٠: «يجب على المتقدم إلى التناول الأول الاعتراف أولاً». وفي مجموعة القوانين الكنسية القانون رقم C914:

«أن مسؤولية الأهل وراعي الأبرشية ملاحظة الأطفال الذين بلغوا سن الرشد وتأهيلهم ليصبحوا مستعدين بشكل صحيح لتناول الخيز الإلهي في مرحلة مُبكرة، على أن يسبق ذلك قبولهم لسر الاعتراف. وعلى راعي الأبرشية أن يكون يقظاً لكي لا يتقدم الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد إلى المائدة المقدسة».

أن سر القربان المقدس (الاوخارستيا) الذي نحن بصدده لهو سر عميق جداً وأوجهه مختلفة ومتشعبة وليس من السهل علينا نحن البالغين فهم مضمونه، فكم بالأحرى أطفال ذوو أفق التعليم المحدودة. إلا أن خبرات العديد من هؤلاء الأطفال أكدت «أن يوم تناولهم الأول لم يكن متميزاً بملابسه وبهرجته وماديته فحسب بل الأهم من ذلك إحساسهم أنهم في ذلك اليوم أصبحوا جزءاً مهماً من الكنيسة وأن المسيح قد لمس قلوبهم بشفافية وأحسوا بأنه يمسك بأيديهم ليخطوا إلى الأمام بدلاً من أن ينهوا المشوار».

فسر الاوخارستيا هو ملخص كل شيء في مسيحيتنا وهو النقطة التي تتباعد منها جميع الخطوط وتتقارب إليها، أنه وحدة الله والإنسان في المسيح، وحدة الماضي «الأجداد»، الحاضر «الآباء»، والمستقبل «الأطفال». وأن كلمة (سري: «رازا») التي نستخدمها في الاوخارستيا لا تتناقض وكلمة (واقعي) التي يفضلها الأطفال في هذه السن وإذا أردنا أن نفهم ذلك توجب علينا أن ندرك أن التدبير الإلهي الأساسي هو توحيد جميع البشر في الله في المحبة وإشراكهم حياته الخاصة، وأن حضور المسيح هو حقيقي لا بل هو أكثر أنواع الحضور حقيقة. لأن الاوخارستيا تحقّق حضور المسيح في أعمالنا ببذل نفسه طعاماً ليوحدنا به، وبواسطتهم ببعضنا ببعضاً. حيث لا يمكننا أن نتوصل إلى ذلك بأنفسنا. وهذه الطاقة المُوحّدة تفترض حضوره الحقيقي. أن مسألة التفسير وكيفية الحضور الحقيقي للمسيح غالباً ما يصعب فهمها فهي من اختصاص الفلاسفة ولا يمكن تناولها بدون الاستعانة بالمفاهيم الفلسفية. إلا أن كل الذي يمكن قوله بأنه لا

خلاف بين العلامة أو الرمز والحقيقة فإذا سألنا أحد هؤلاء الأطفال المتناولين لأول مرة: ما هي المصافحة؟ لن يجيبنا بأنها استهلاك طاقة عضلية يسببه ضغط الكفين الواحد على الآخر، بل يجيبنا: «أنها علامة تدل على الوثاق والمحبة والتهنئة». فحقيقة المصافحة هي أن تكون علامة المحبة والسلام. أن المسيح لا يحل محل الخبز «ثمرة جهد الإنسان وعرقه» ولا يحل في مثل هذا اليوم محل أطفالنا، فلو كان كذلك، كأني به يقول: «تنحوا من هنا أيها الأطفال لأنكم غير نافعين فها أنا ذا أتي لأخذ مكانكم»، لا بل هذا اليوم هو دعوة من الله لنا ولأطفالنا لندرك إلى أي مدى نحن مدعوون كي نصبح مثل الذي تناولناه اليوم.

أن المسيح لا يحل محل الخبز، كما أن المرأة لا تحل محل البنت الصغيرة، بل البنت الصغيرة هي التي تصبح امرأة، وليست الفراشة هي التي تحل محل الدودة، بل الدودة هي التي تصبح فراشة، لا يأخذ مكاني أحد آخر، بل أنا أصبح آخر بدءاً من يوم متميز كهذا وهو يوم تناولي الأول، هكذا يلزم أن يقول أطفالنا اليوم.

خاتمة

لقد أصبح حدث التناول الأول من أكثر التقاليد اهتماماً في الكنيسة الكاثوليكية وأصبح مناسبة سعيدة يلم حوله الأهل والأقارب معبرين عن فرحتهم بأطفالهم بأشكال مختلفة. وتتهيأ له العوائل منذ مدة طويلة تسبق الحدث، وعادة توصي الكنيسة بضرورة إبقاء هذه المناسبة ضمن إطارها الروحي والكنسي والعائلي بعيدة عن كل أنواع الحفلات والترف الزائد كي لا يصبح الأهل سبباً في فقدان المعنى العميق الذي ناله المتناول خلال مدة التهيئة. فالتعبير عن محبتنا لأطفالنا وهم يتقدمون خطوة مهمة نحو المسيح يجب أن يكون بشكل يتناسب وهذه المناسبة، لدفعهم إلى الأمام في علاقتهم مع المسيح ويكون هذا اليوم فرصة مهمّة للتعبير عن عمق علاقتنا بكنيستنا وببعضنا البعض بشكل هادئ وعميق يختلف عن بقية المناسبات والحفلات الأخرى ويبقى السؤال ماذا سيبقى في ذهن الأطفال الذين بكّروا في الصباح فرحين مرتلين تراتيلهم الروحية في ذلك اليوم وبملابسهم البيضاء يظهرون كملائكة السماء علامة نقاوة القلب والضمير وعلامة التساوي مع أخوتهم بينما في المساء ذلك اليوم يختمون فرحتهم الروحية بأمور مادية وأنغام موسيقى صاخبة ورقص بملابس غير ملائمة مع كل من هب ودب وبدون صلة بقدسية ذلك اليوم المتميز في حياتهم فيا حبذا لو وضعنا كل مناسبة في إطارها الصحيح. وأخيراً، أليس هناك طريقة أخرى نعبّر فيها عن فرحنا الداخلي بعيداً عن الصخب وضجيج الموسيقى؟

القيامة ما بين التقليد والعصرنة

بقلم:
الشماس الإنجيلي
سليم كوكه

من ضمن اهتمامات النصف الثاني من القرن الماضي حتى السنين الأولى من هذا القرن أهمية التاريخ: الإنسان يصنع تاريخه بنفسه. فإنسان هذه الفترة الزمنية متأثر دون ريب بكارل ماركس الذي ناشد يوماً بـــ (تحويل) العالم عوضاً عن (التأمل في العالم)، لذا نرى المسيحية تتحدث اليوم عن يسوع المسيح وقيامته من هذه الزاوية: كيف أن يسوع الإنسان (حوّل) مجتمعه الديني والاجتماعي والسياسي حتى رأى بعض اللاهوتيين فيه رجلاً ثورياً مجاهداً مدافعاً عن الفقراء والمظلومين.

إذا تخلينا عن النظرة المتطرفة والمبالغ فيها علينا أن نتحدث في المسيحانية عن علاقة يسوع الناصري بمجتمعه على كل المستويات، ويُعتقد أن من هذا المنطلق نشأ ونما لاهوت التحرير واللاهوت السياسي ولاهوت العمل أي (روحانية حياة الناصرة) أي الحياة اليومية ليسوع في مدينته، كل هذا جاء انعكاساً لاهتمامات الإنسان في هذه السنين الأولى من هذا القرن وما سبقه في الخمسين سنة الماضية على المسيحانية الحديثة لتأخذه بعين الاعتبار وبطريقة جدية. أن هذه التيارات الفكرية – الدينية بالرغم من الملاحظات التي يأخذها البعض عليها إلا أن الخلفية اللاهوتية والفلسفية لها ولغيرها من التيارات المعاصرة في الكنيسة هي: أن الله قد منح الإنسان مع الحرية القدرة على صنع تاريخه، وهذا هو معنى صرخة يسوع على الصليب (إلهي، إلهي لماذا تركتني) التي كثيراً ما نقف حيالها متسائلين أين جواب الآب من عذاب الابن؟ نعم إن هذه الصرخة لم تجد رداً من طرف الآب في حينها إذ هي علامة على تخبط الإنسان في مصيره وألمه وتاريخه.. وهكذا فأن معنى يوم السبت، وهو يوم وجود المسيح في القبر، إنما هو (صمت الله) وعدم تدخله في تاريخ البشرية احتراما منه لخليقته وللحرية التي أوجدها في الإنسان.

غير أن الله بإقامة يسوع المسيح من بين الأموات وصعوده إلى يمينه كما يقول التقليد يرد على صرخة الابن إذ لم يتركه يرى الفساد بسبب الموت، وبالتالي نرى أن الله يتدخل في تاريخ البشرية ولكن دون أن يسلب الإنسان حريته، فأصبح الله منذ التجسد واكتماله بالقيامة شريكاً في تاريخ البشرية وطرفاً فيها محترماً حرية الإنسان.

فإذا كان يسوع المسيح في تقليد الكنيسة (سيد التاريخ) فالإنسان هو (صانع التاريخ) وإذا كان الإيمان يعلمنا أن المسيح هو (الألف والياء) و(البداية والنهاية) فالإنسان هو (ما بين الطرفين)، وإذا كان المسيح (بكر الخلائق) بكراً لأخوة كثيرين فالإنسان هو (أخو يسوع المسيح) يصعده إليه بقيامته مناشداً إياه النهوض بفكره وعقله إلى ما هو خلاق وسام. فالقيامة التي هي ملء الحياة في الله لم تفقد يسوع المسيح هويته ولا إنسانيته بل ظل بعد قيامته ما كان قبلها في أيام حياته على الأرض وإن كان بطريقة مختلفة. أن القائم من الموت هو الذي عاش بين البشر فمجد قيامته لم يُزِل عنه ملامح إنسانيته

وشخصيته وظل إنساناً بكل معنى الكلمة وهذا هو مغزى إظهار أثر المسامير والجروحات في جسده، فبكل تأكيد أن لوجود أثر هذه الآلام معنى روحياً عميقاً وهو أن ألام البشرية كلها لا تزال موجودة في مجده فلا يغيب عن مخاض البشرية ولا ينفي وجود الشر ونتائجه من ألم وعذاب وخطيئة. فالشر لا يزال حاضراً وعاملاً في البشرية وعلامته في جروحات المسيح القائم من الموت دليل على انتصاره على هذا الشر.

إذن ليس القائم من الموت شخصاً آخر بل هو شخص (مختلف) بشكل آخر، أنه يسوع الناصري نفسه ولكن بطريقة مختلفة، وهذا ما يعبر عنه في المفهوم اللاهوتي (الجسد الممجد). فبعد قيامته احتفظ المسيح بجسده نفسه قبل موته ولكن هذا الجسد أصبح ممجداً أي تحول جسد (عبد يهوه) إلى جسد السيد والرب الغير خاضع للزمان والمكان والعناصر الطبيعية خارجاً عن عالمنا هذا وعن حدوده وقوانينه وشروطه وقيوده، حراً من عالم الدنيا حيث تجسد ومات. وهذا ما تعبر عنه الأناجيل عامة عندما تصور المسيح القائم من الموت فيتراءى لتلاميذه و(الأبواب مغلقة) فلم يعد هناك ما يقيد جسده و لم يعد في قبضة العالم الطبيعي، أضف إلى ذلك أن الجسد البشري عامة هو مركز العلاقات البشرية الذي من خلاله يدخل الإنسان في علاقة مع الآخر في زمان ومكان معينين فالجسد البشري خاضع لهذين الظرفين وبالتالي لا يستطيع أن يحضر لإنسان آخر إلا في زمن معين وفي مكان معين. أما الجسد المُمجد فيصبح حاضراً كلياً لكل الزمان ولكل المكان وبوجه مطلق وبحرية تامة وبوسعه أن يدخل في علاقات مع البشرية في كل زمان ومكان إذ أنه خارجهما ويشملهما لذا كان قول يسوع: «إذا رفعت من هذه الأرض جَذَبْتُ أليَّ الناس أجمعين» (يو ١٢:٣٢). أنه يجذب البشر بأجمعهم من كل العصور ومن كل الأماكن وذلك بفضل جسده المُمَجدَّ فالقيامة بدلت جسده الخاص إلى جسد كلي شامل مكتسباً شفافية مطلقة جعلته يدخل في علاقة مع كل البشر عبر كل الأزمنة، وما علاقتنا اليوم بالمسيح يسوع إلا امتداداً لهذه الحرية التي تميز بها جسده الممجد باعتبارنا أعضاء حيَّـة للكنيسة التي هي جسده وعروسه بحسب تشابيه الرسول بولس.

فما تم بقيامة يسوع المسيح من رفع وتمجيد وصعود إلى يمين الآب يتحقق في البشرية على مرّ الأجيال والعصور، أي في تاريخنا البشري.

القيامة هي انتصار على الموت وإذا كانت علامات الموت قائمة تشمل الخطيئة التقليدية والمرض والألم فأنها اليوم أضافت لنفسها: التكاسل والهامشية واللامبالة والقمار وعدم اكتراث للآخرين وتشرد الشبيبة وانجرافها وانحلال القيم والتدين الأعمى وتشويه صورة الله التي أراد المسيح كشفها لنا في قيامته... فكم نحن بأمس الحاجة إلى إعادة النظر في الكثير من مواقفنا وفي خطى مسيرتنا الحياتية في هذا العصر. أن المسيح الذي جال في حياته مخففاً آلام مَنْ حوله وغافراً خطايا ومبشراً بالمحبة إنما كان يرمز بالفعل إلى الانتصار على الموت بكل أشكاله في القائمة أعلاه. وما كان يرمز إليه في أقواله وتعاليمه، بل وفي أعماله، قد تحقق بصفة مطلقة في قيامته وهو ذاته يدعونا اليوم كي نحيا من جديد عصر ما بعد القيامة في نظرتنا إلى الله وإلى الآخرين وإلى ذواتنا وإلا فما فائدة الأعياد والمناسبات تتكرر علينا دون أن نعود إلى الوراء ولو خطوة واحدة لنرى أين نحن من بشرى القيامة التي يتوجب أن تكون أقوى من الموت.

من تجاربي المحنطة

بقلم: سليم كوكا

ينتاب الإنسان شعور جميل كلما منَّ الله عليه نعمة تحقيق أمنية من أمنيات طفولته أو شبيبته، وأمنيات الإنسان ورغباته تتنوع بحسب اهتماماته الشخصية وتوجهاته الفكرية منذ مراحله العمرية الأولى، والأمنيات والرغبات تتنوع ويتيه الإنسان في ظروف تحقيقها كما الأحلام التي تتلاشى أمام صعوبات الحياة ومسيرتها.

هكذا كنت أشعر وأنا أتوجه من إحدى المدن الهولندية مع مجموعة من الأصدقاء المقيمين هناك قاطعين مسافات طويلة وتقلنا سيارة يقودها شاب متمرس بسباق السيارات، كالعديد من شبابنا الذين يتمتعون بحرية السياقة في تلك الطرق الخارجية من الأراضي الأوربية، حتى انتابني شعور بخيبة تحقيق أمنيتي كلما كنت أنظر إلى عداد السرعة وهو يتجاوز الـ ١٥٠كم/ساعة. فأصرخ عن غير وعي: «هيه يا معود خفف شوية، عل الأقل وصلوني هذه المرة بسلامة.. ما باقي شيء لأن تتحقق أمنية حلمت بها من مدة طويلة». على أية حال (يد على القلب) وعين على الطريق لمحت أولى إشارات الطريق لتدلنا إلى مدينة كولونيا بالألمانية و(Colongne) بالإنكليزية، فصرخت من هنا، فرّد عليَّ سائقنا الشاب: «نعم أعرف يا خال، أتعلمني الطريق؟!!» فقلت له: «عفواً يا معود المهم نوصل بسلامة»، فرد عليَّ: «لا تخاف سنصل بأذن الله».

وبين عين على يمين الطريق وأخرى على شماله بدأت أحدث الأصدقاء الشبان عن الأمنية التي طالما حلمت بها منذ أن كنت شاباً يافعاً مثلهم، آلا وهي ملاقاة قداسة البابا وجهاً لوجه». أعجبتهم (السالفة).. «إنها فعلاً أمنية غريبة». نعم لقد تمنيت أن ألاقي البابا الراحل منذ اليوم الذي باشر قداسته باهتمامه بالشباب و لم يتحقق لي ذلك ولكن اليوم لا ضير أن نلتقي معكم خليفته بنيدكتوس السادس عشر، الذي كثيراً ما قرأنا له كجوزيف راتجزنجر، اللاهوتي الشهير وحامي عقيدة كنيستنا، إذن فهو فخر لنا أن نُمنَح فرصة السماع إليه مباشرة مع مئات الآلاف من الجماهير الشبابية القادمة إلى هذه المدينة الواقعة في مقاطعة بافاريا الشهيرة بكاتدرائيتها ذات البرجين، وما أن وصلناها حتى اكتشفنا استعدادات المدينة لأكبر حدث في تاريخها المعاصر آلا وهو احتضانها لأكثر من مليون شاب وشابة حضروا من ١٦٠ بلداً في أكبر تجمع تشهده للفترة ١٦-٢١، آب ٢٠٠٥.

بالرغم من أن هذه الخبرة المتواضعة من حضورنا لهكذا تجمع قد مضى عليها ما يقارب السنتين إلا أنه أرى من المفيد أن أذكر القارئ العزيز بمدى روعتها وتأثيرها في حياتي الشخصية. فلازلت أذكر عند وصولنا إحدى التجمعات الشبابية في المدينة عصر يوم ١٦، آب، إذ قدمنا أحد الأساقفة الذي كان يترأس ذلك التجمع في إحدى الساحات العامة، دلنا إليها أحد المتطوعين في وسط المدينة، إذ ما أن فتحت زجاج السيارة وقبل أن أكمل سؤالي قال المتطوع: «أتبعوني»، فتقدمنا بدراجته النارية، الألمانية الصنع، فأدخلنا إلى بوابة الساحة وهو شاكراً لنا عوضاً أن نشكر نحن. قدمنا الأسقف كأعضاء ضمن الوضع الأسترالي ومن خلفية عراقية كلدانية، قال: «كم هو رائع أن نلتقي في مدينتنا شباب بجنسية أسترالية ذوي حضارة بابلية يستنشقون هواء كولونيا، أنه عالم الله الفسيح الذي جئنا لنبنيه معاً حباً وسلاماً...الخ».

استمرت الاحتفالات والتجمعات والسهرات الإنجيلية ليس فقط في مدينة كولونيا فحسب بل في العديد من المدن الأخرى، إذ حيثما كنت ترفع بصرك كنت ترى تجمع حول وفوق عشرات المنصات التي نصبت في الساحات العامة ينطلق منها الشباب في مسيرات داخل المدينة حتى يصلوا إلى كاتدرائية معينة من قبل لجنة منظمة. فيدخلونها وهم يصلون ويرنمون ثم يخرجون ليرقصوا فرحاً وبهجة لروحية الشباب في الساحات العامة، بعدها يتفرق الجميع كل إلى حيث إقامته إذ كان فعلاً قد تم توفير أماكن عديدة لإقامة الوفود، حيث فتحت المدارس الكنائس والعديد من النوادي الحكومية. كما بادرت آلاف العوائل إلى فتح أبوابها أمام الضيوف والوفود المشاركة ومنها عائلة كريمة تركية كلدانية الأصل، وفرت لنا المكان والمبيت والفطور وبالبساطة المعهودة كان رب البيت يكلما بلهجة سورث تركية غريبة عما تعودنا عليها بما فيها من مفردات دغدغت ابتسامتنا.

عودة إلى الجذور

لقد شاءت الصدف أن تكون أولى رحلات البابا بندكتوس منذ انتخابه يوم ١٩ نيسان ٢٠٠٥ خارج إيطاليا إلى بلده ألمانيا وبشكل خاص إلى مدينته كولونيا التي كان رئيساً لأساقفتها، أنها عودة إلى الجذور له شخصياً ولكل اللذين شاركوه في هذا التجمع الشبابي الكبير الذي أتخذ شعار: «جئنا لنسجد له» (متى ٢:٢). وهو قول المجوس الباحثون عن الطفل يسوع وهم في طريقهم من الشرق إلى بيت لحم. ومن المعروف تقليدياً منذ القرون الوسطى أن كاتدرائية كولونيا تحوي وتكرّم رفات هؤلاء المجوس. التقى البابا الجماهير الشبابية الزوار على ضفاف نهر الراين الذي يمر بالمدينة ثم أقل سفينة ليعبر الراين ترافقه أربعة سفن أخرى رمزاً للقارات الخمس التي جاء منها الشباب ورمزاً للمسيرة المسيحانية المشتركة. وهاجت الجماهير وهي تحي قداسته وكلمات ترن في الأذان: «أفتحوا قلوبكم للرب، دعوه يكلمكم هذه الأيام، قدموا لهو كالمجوس أفراحكم وأحزانكم واستنيروا بنوره..». وفيما كان جمع غفير من الشبيبة يلتقي البابا على نهر الراين كانت عشرات المجاميع الأخرى تقيم صلاة درب الصليب في الكنائس الأخرى إلى يوم السبت ٢٠، آب ٢٠٠٥، حيث بدأت الحشود تنطلق راجلة إلى مارينفيلد (Marienfield) التي تبعد حوالي ٢٥كم عن مركز المدينة. وهذ الساحة كانت في السابق منجماً للفحم، ومنعت السيارات الخاصة من دخول الميدان حتى مسافة قاربت الـــ ٥ كيلومترات. وفي الطريق الذي سلكه الشباب على الأقدام خرجت العوائل من بيوتها ترحب بهم. وبعد أن حلّ الظلام وفي حوالي الثامنة مساءً حضر قداسة البابا مع مرافقيه وألقى كلمة مقتضبة حث الشبيبة فيها على عيش حياة الصلاة وفعلاً تخللت الأمسية صلوات صامتة وشهادات حيَّـــة من شباب بعض الدول المشاركة، وثم السجود للقربان المقدس. بقي قداسته حتى منتصف الليل في وسط صيحات الشباب وهتافاتهم، وعاد كل واحد إلى وفد بلاده الذي تعالت أعلامها في سماء الميدان وكان لأستراليا أكثر من ٧ مجاميع متفرقة منها من كان ذو حظ وفير كونه بالقرب من المنصة الرئيسية وأخرى بعيدة وكان الكنغر يعانق العلم الأسترالي أينما نظرت في تلك الحشود الكبيرة. أفترش الشباب الأرض بأغطيتهم وعدة النوم المحمولة على الظهر فمنهم من أغذته الغفوة على منكبيه ومنهم من تدحرج هنا وهناك على تلك الأرض الرطبة والباردة إذ سرعان ما تغير الجو ونزلت درجة الحرارة إلى ١٠م في تلك الليلة الصيفية الألمانية إلا أن دفء اللقاء والمكان وكلمات الترحيب والتشجيع من المتطوعين الساهرين جعلت من الأرض الباردة دافئة ممتعة وساد صمت عميق وفي ميدان احتضن ما يقارب المليون شخصاً تدفأ واستنار بأضواء شموعاً ملئت أحواض واسعة زاد قطرها على الخمسة أمتار.

بقي كل في مكانه خوفاً من أن يفقده حتى بزغ فجر الأحد، وقفت في تلك الساعة ناظراً ذلك المشهد البشري الرائع وأعلام ترفرف احتضنتها الشبيبة معبرة عن حبهم لأوطانهم وكنيستهم وأرضهم وفي الساعة السادسة صباحاً بدأ المئات من المتطوعين يجولون بين الوفود وهم يوزعون الفطور المخصص لكل وفد عن طريق مسئوله بينما كنت تسمع لموسيقى صباحية تأملية عبر مكبرات الصوت التي ملأت الساحة ثم ترانيم بعدة لغات إلى أن حان موعود وصول البابا مرة أخرى بسيارته الزجاجية مع الهيئات المدنية والروحية وتعالت مرة أخرى هتافات الشباب مرحبة بقداسته وبدأ البابا قريباً لكل واحد منا حيث التغطية التلفازية عبر عشرات الشاشات الكبيرة التي صفت بشكل منسق وجميل. جال موكب قداسته بين جموع الشباب إلى أن أعتلى المنصة الرئيسية القائمة على تل مرتفع والجموع محتشدة حول مذبحه على شكل حرف C. وتوالت القراءات المقدسة وجاءت كلمة البابا صرخة في الصحراء: «أيها الشباب لقد حان الوقت لأن تأخذوا مكانتكم في قداس الأحد.. أنني أدعوكم إلى التمسك بالإيمان وأحيائه من أجل عالم أفضل تسوده المحبة وليس العنف..» ورتلت تراتيل جماعية صدحت بها حناجر الحضور وملئت فضاء كولونيا محولة إياها إلى فردوس أرضي يعانق الفردوس السماوي. وأثناء تناول القربان المقدس وضح أحد الكرادلة على أن يكون المتقدم إلى تناول جسد الرب مؤمناً بالكنيسة الكاثوليكية الجامعة، فتقدم مئات الآلاف من الشباب لتناول جسد المسيح تعبيراً عن إيمانهم لوحدة جسده، وشارك في مناولة القربان حوالي ٦٠٠ أسقف وكردينال و٥٠٠٠ كاهن. انتهى قداس الأحد وودع البابا الشباب بكلمة ختام وسلام بأربعة عشر لغة ثم أرفقها بكلمة شكر حار للمنظمين. وجاءت اللحظة المثيرة وتحديد اللقاء المقبل وما أن نطق باسم مدينة سدني – أستراليا حتى تعالت أصوات آلاف الأستراليين ورفرف علم بلادهم مع الكنغر إذ ردد البابا: «أوزي.. أوزي.. سنلتقيكم عام ٢٠٠٨ فإلى اللقاء هناك».

بدأت الوفود الشبابية يعدون العدة لطريق العودة إلى أوطانهم بعد أن عاشوا (عنصرة جديدة) على حد قول إحدى المشاركات اللبنانيات اللاتي كن مع وفد لبنان للمعوقين، سألتها، ما رأيك في هذا التجمع، قالت: «إنها عنصرة جديدة لم نشعر بعائق اللغة إطلاقاً حيث طغت لغة المحبة فربطتنا جميعاً وسهلت أمورنا اللغوية..» وكنت أثناء الاحتفال قد لمحت العلم العراقي حيث مثله مجموعة من الشباب المغتربين وخفق قلبي مع رفرفته بألوانه المألوفة التي تمنيت أن تلتئم مرة أخرى تحت ظلاله كل الأطياف العراقية متحابة ومسالمة فهو ذا العلم شامخ يحمل أمال الشعب العراقي المتألم. وتدفقت الجموع وكأنها مواكب عسكرية تغني وتزمر: «يحيا البابا، تحيا الكنيسة». ووقفت تنتظر في طوابير طويلة للصعود إلى الحافلات المخصصة من بلدية المدينة لنقلهم إلى مركز المدينة، وانتظرنا ساعات طويلة قاربت الستة ساعات بالرغم من التعاون اللطيف من قبل الشباب الألماني الذين فسحوا المجال للقادمين من الدول الخارجية وعمل المتطوعون جهد إمكانهم للخروج من أزمة المواصلات التي بدئ أنها فاقت إمكانية المدينة. عاد كل إلى حيث أتى وقد زادت قناعته بأن كنيسة المسيح برغم ضعفها مبنية حقاً على صخرة وأن قوتها تكمن في ضعفها وأنها ستبقى حيَّـة بالرغم من كل التحديات ما دام هذا السيل العارم من الشباب معها كماً ونوعاً. ودعت أصحابي من الوفد الأسترالي لألتحق بالمجموعة الأولى من الشباب العراقي، لقيتهم وقد بدوا أكثر إشراقاً وشعوراً بانتمائهم لكنيستهم، ودعتهم على أمل اللقاء مرة أخرى في سدني ٢٠٠٨ بإذن الله.

التجلي
الظهور الإلهي

بقلم: سليم كوكا

يعتبر عيد التجلي (كليانا) من الأعياد المارانية الكبيرة والمتميزة في طقسنا الكلداني والذي يصادف السادس من شهر آب من كل سنة، فالحدث هو بيان واضح ومفهوم كاشف لشخصية يسوع. والتجلي حالة تعني: تحول أو تغيير، إذ يقول مرقس: «وتجلى بمرأى منهم فتلألأت ثيابهم ناصعة البياض حتى لا يعجز أي قصار في الأرض أن يأتي بمثل بياضها» (٩:٣). بينما متى فيذكر: «تجلى بمرأى منهم فأشع وجهه كالشمس وتلألأت ثيابه كالنور» (١٧:٢). أما لوقا فيكتب: «وبينما هو يصلي تبدل منظر وجهه وصارت ثيابه بيضاً تتلألأ كالبرق» (٩:٢٩). فالأناجيل الازائية الثلاثة تفهمنا على أن هنالك تحول أو تغير لا مثيل له في هيئة يسوع، عاينه التلاميذ الثلاثة (بطرس ويعقوب ويوحنا) لأول مرة منذ معاشرتهم له. والأناجيل تُشير أيضاً إلى أن التغير الحاصل في الثياب وهي تتلألأ كرمز إلى المجد السماوي المنعم به على المختارين الذين يصيرون كالملائكة... فموسى وإيليا يتمتعان بالمجد أيضاً لأنهما أشركا في عمل الله وعادا إليه بطريقة غامضة، فالأول اختفى لا أحد يعلم أين قبره إلى يومنا هذا (تث ٣٤:٥-٦)، أما الثاني فاختطفته عاصفة إلى السماء في مركبة نارية أمام ناظري أليشع (٢ مل ١١:١٢). أما القديس بولس فيذكر في رسائله معلناً أن (المجد) سيوهب لجميع الذين سيقبلون في العالم الآتي. بينما (مجد) يسوع فهو متميز وخاص إذ أنه يتمتع به هنا قبل قيامته، وحدث التجلي يأتي بعد إعلان يسوع عن ملكوت الله بتعاليمه ومواعظه وأمثاله وقبل آلامه، ولاشك في أن هذا الإعلان عن الملكوت، الذي لم يتخيله حتى تلاميذه، هو الذي أدى إلى موته ثم قيامته. لذا فكل المسيحيين الأولين واللاهوتيين من بعدهم يعتبرون أن (التجلي) الحدث الأهم (الذروة) في حياة يسوع التعليمية.

أما بعد القيامة فلقد كان كل موقف صلب وشجاع يأخذ التلاميذ (تجلياً / كاشفاً) للرسالة التي سلمها لهم معلمهم وبالأخص الثلاثة منهم، الذين أصبحوا شهوداً لتراعه وخلال مشاركته لآلامه. فكل ملاقاة صحيحة وصادقة لعبت دورها في مساندة إيمانهم وعادوا بالذاكرة إليها تحت ضوء القيامة ومن منظارها.

التجلي، الحدث والغاية

تعتمد حياة الإنسان على عنصر هام هو العلاقة لأنه بها ينسج حياته مع من حوله، ويربط حاضره مع ماضيه ومستقبله وفي التجلي كشف واضح لحقبتين لا غيرهما

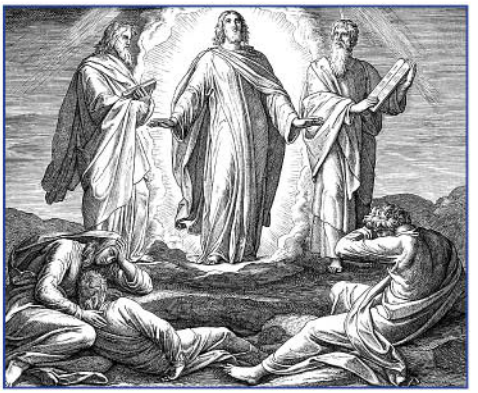

كونتا تاريخ الخلاص، فموسى وإيليا كحقبة سابقة للمسيح والرسل الثلاثة الحقبة التالية له، ففي القرن ١٣ ق.م وفي برية سيناء يستدعي الرب موسى ليكون قائدا رغماً عنه حتى يعطيه الرب الشريعة على لوحين من حجر، فبعد أن شق البحر وقاد شعبه من العبودية وتاه به عبر الصحارى ولكنه رغم ضعفه لبى الدعوة حتى النهاية. أما إيليا، القرن التاسع ق.م، النبي الغاضب لسبب تعبدات ملوك إسرائيل للإله بعل دافع عن الله الحيّ موبخاً الملوك بشجاعة، يأمره الرب وهو سائر إلى الجبل ليخرج لكي يريه مجده: «أخرج من المغارة وقف على الجبل... وكان الله في نسيم لطيف». المسيح في تجليه يجمع موسى / رمز الفصح والعبور وإيليا / رمز الانبعاث والأنبياء .بمثلي العهد الجديد (التلاميذ) الذين سيحملون بشرى الرسالة الجديدة إلى العالم أجمع وينجلي في هذا الحدث سر الثالوث الأقدس حتى ليذكرنا اللاهوتي توما الاكويني: «الآب بالصوت والابن هو المتجلي والروح القدس السحابة المنيرة». أما أفرام السرياني فينشد: «صعد بهم إلى جبل عالٍ لكي يُظهر لهم أمجاد لاهوته فلا يتعثروا فيه عندما يرونه في الآلام... أصعدهم إلى جبل لكي يُظهر لهم قبل قيامته مجد لاهوته حتى متى قام من الأموات يدركون أنه لم يتقبل هذا المجد كجزاء لعمله كمن لم يكن له هذا المجد، وإنما له هذا المجد منذ الأزل مع الآب والابن والروح القدس... أضاء وجهه ليس كما أضاء وجه موسى من الخارج وإنما أشع مجد لاهوته من وجهه (أي من ذاته)» .

إذن فالتجلي هو لقاء وعلاقة بين رؤساء العهد القديم (النبيان) ببناة العهد الجديد (التلاميذ)، واقفاً بينهم الابن كوسيط لحل الأزمة التي كان من الممكن أن تتفاقم بين الثقافتين كما هي في أيامنا، فكم من أزمات تخنق علاقاتنا الإنسانية بسبب صراعات الأجيال؟ وكم من جليد يتراكم يوماً بعد يوم على ثقافاتنا، تفصلنا الواحد عن الآخر؟ فكم نحن اليوم بأمس الحاجة إلى من يتجلى ليكشف لنا عن صفاء علاقتنا الإنسانية. ليس فقط أن نكتفي بقول بطرس: «حسن يا رب أن نبقى ها هنا دون إدراك وفهم للموقف، إذ يرغب بامتداده كمن هو في حلم جديد، بل أن نعي الرسالة الإنسانية المُسلمة إلينا عبر تاريخ طويل من المشقات والآلام.

المصادر:

١. معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

٢. الكتاب المقدس، الهوامش، المطبعة الكاثوليكية، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٩١.

٣. كتاب صلوات من الطقس الكلداني، مطبعة الأديب، بغداد، العراق، ١٩٨٤.

إكرام أم عبادة الأيقونات

إعداد: سليم كوكا

مما لا شك فيه أن الفن بمختلف صوره وأشكاله وبخاصة الصور الآدمية قد أدى دوراً مهماً ومتميزاً في ترسيخ الإيمان المسيحي وكان عاملاً فعالاً في ممارسة الطقوس الدينية والروحية. ومنذ البدايات الأولى أيقن المسيحيون الأولون أهمية الفن بشكل عام والرسوم والأيقونات بشكل، خاص، لذا استعانوا بها كمدلولات دينية منذ القرن الثاني للميلاد. إذ وجد على جدران ما يعرف بسراديب القبور (Catacombas) في روما، والتي كان المسيحيون الأولون يجتمعون للصلاة فيها ولممارسة طقوسهم وإقامة القداديس بعيداً عن أنظار السلطات الرومانية وكانوا حتى يدفنون موتاهم فيها، في هذه السراديب المكتشفة عام ١٥٧٨م نرى جدران مزينة بالرسوم الآدمية ذات ارتباط وثيق بالمسيحية وبالرموز العميقة التي تبنتها الديانة الجديدة آنذاك. وقد أصبحت العديد من تلك الرسوم ذات أهمية كبيرة لدى المسيحيين على مر الأجيال، فمنها على سبيل المثال: الحمامة وسعف النخيل وغصن الزيتون والراعي الصالح. فهي إذن مدلولات لاهوتية عميقة المعنى في الفكر المسيحاني كالسمكة التي أصبحت من أهم تلك الرموز بسبب

تسميتها اليونانية (I-ch-th-u-s) التي تمثل المقاطع والأحرف الأولى من العبارة اللاتينية:
(Jesus Christos Thaou Uios Soter)
والتي تعني: «يسوع المسيح أبن الله المخلص». هذا كان فعلاً أروع مدلول تبناه المسيحيون الأولون فنياً للتعبير عن اعترافهم بإلوهية المسيح ومجده. وكانت علامة السمكة هذه تعبيراً مباشراً على أن حامله ومقتنيه هو مؤمن بهذا المضمون اللاهوتي، فهو ضمنياً ينتمي إلى الديانة الجديدة من دون أن يقول ذلك كلامياً.

وبعد ما استتبت الأمور كلية للمسيحية في القرن الرابع وفي زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٥٧) الذي أصدر مرسوم ميلانو (Milan Doctrine) سنة ٣١٣م، والذي بموجبه أُلغيت جميع الضغوطات والقيود والعقوبات التي كانت مفروضة على المسيحيين. حدث ما يشبه الانفجار العمراني والفني في الإمبراطورية جمعاء، فتم بناء وتشييد المئات من الكاتدرائيات والكنائس والبيع مزينة بالرسومات والتماثيل والإيقونات التي تمثل المسيح يسوع والعذراء مريم والتلاميذ وشخصيات الكتاب المقدس... وما زاد حركة العمران هذه قوة وانتعاشاً هو الانتقال بالعاصمة من روما إلى مدينة بيزنطة (اسطنبول حالياً) ذات الأغلبية المسيحية آنذاك. إذ كانت المسيحية قد انتشرت بشكل واسع في أقاليم آسيا الصغرى وكان الفن أيضاً قد أخذ طابعه المسيحاني الخاص وبطابعه الشرقي المعروف آنذاك. وبذلك تسابق الفنانون من كلا الطرفين تفنناً في تزيين ليس الأماكن المقدسة والكنائس والأديرة حسب، بل تعدى ذلك المساكن الخاصة والأماكن العامة فامتلأت أطراف الإمبراطورية الرومانية بالصور والإيقونات والتماثيل التي تمثل الرموز الأساسية في الديانة المسيحية. فأصبح حتى المارة في الشوارع العامة يسجدون لها بخشوع وعبقوا الجو أمامها بالبخور وزينوها وتوجوها بالزهور إكراماً للأشخاص الذين تمثلها.

مفترق الطرق

الاهتمام بالصور والإيقونات التي زادت وانتشرت بشكل ملفت جداً للنظر حتى الربع الأول من القرن الثامن أوهم الكثير من الناس المتعلمين وغير المتعلمين من أتباع الكنيسة في ذلك الزمان ومن حيث لا يدرون، فعامة الناس رأت في هذه التماثيل والإيقونات أفضل وسيلة للتعبد والتدين وأداة يستجمعون أمامها أفكارهم التي كونوها عن شخصياتها ويرفعون صلواتهم البسيطة وطلباتهم كلما مروا من أمام تمثال يمثل السيد المسيح أو العذراء، مريم، أو تذكرهم بغيرة أحد الشخصيات التي ضحت بحياتها من أجل إيمانها المطلق بالمسيحية... وبهذه المجموعة رأى العديد من آباء الكنيسة أن هذا الفن أدى دوره الإيجابي في أن يكون عاملاً مساعداً في تطوير إيمان أبناء الكنيسة لذا صبوا جلّ اهتمامهم يوماً بعد يوم في إكرام هذه الصور والتماثيل والإيقونات، إلا أن طرفاً آخر من رجال الكنيسة يشاطرهم بعض الساسة آنذاك رأوا أن الاستعانة بهذه التماثيل والإيقونات قد فاق الحد المعقول والمطلوب... وتوهموا بالقول أن الكنيسة أعادت زمن الأصنام التي كانوا يكرمونها في سالف الزمان ويعبدونها ويسجدون لها دون بعد روحي... ومضت هذه الفئة إلى القول أن الفن أصبح هو الهدف أو الغاية وليس وسيلة لما هو أعمق... وزعموا أن هذه الإيقونات والتماثيل لم تعد تذكر المسيحيين بالمسيح أو العذراء أو من يمثلونها بل أصبحت هي المسجودة دون وعي من عامة الناس.

طبعاً ليس من حقنا أن نحكم على قول هذه الفئة الأخيرة بالصواب أو الخطأ، إلا أنه لابد من ذكر بأن

بعض الدارسين يعترفون أنه كان هنالك فعلاً استعانة بهذه الوسائل بشكل غير معقول إلى حد المبالغة والإفراط مما أدى إلى رد فعل عنيف غير مسؤول من هذه الفئة جاء على شكل حرب عشواء منذ البدايات الأولى لتلك الحركة الخاصة ضد التماثيل والإيقونات والتي عُرفت تاريخياً بحركة (كاسري الصور والإيقونات) أي (اللا إيقونيات). وقد تفاوتت شدة هذه الهجمة بين أطراف المملكة الرومانية وبخاصة لدى الأقاليم المتاخمة للعالم الإسلامي... ولا أحد يستطيع أن يجز لحد الآن إن كان للفكر الإسلامي والفتوحات الإسلامية تأثيراً مباشراً أو غير مباشراً على هذه الحركة... إلا أنه ما يمكن جزمه أن الإمبراطور لاون الايسوري الثالث (٧١٧ – ٧٤١) هو الذي قاد هذ الحركة على الصعيد الرسمي في السنة الثانية من حكمه، بإصداره قراره الأول ضد ما اسماه بتبجيل أو تقديس الصور والتماثيل الدينية. فأمر بأن تُنتزع هذه الصور والتماثيل من الأماكن العامة وحتى من الكنائس والأديرة، وأمر بتدمير أحد أكبر التماثيل للسيد المسيح الذي كان موضع تقديس وتبجيل من الناس والمنصوب على قاعدة عالية عند مدخل القصر الإمبراطوري في مدينة القسطنطينية، وآثار هذا الحدث رد فعل الشعب المؤمن وبالأخص النساء البيزنطيات اللاتي هجمن على منفذي التخريب وعلى رأسهم مندوب الإمبراطور الذي أردياه قتيلاً. طبعاً لم يُوقف هذا الغضب الشعبي والاحتجاجات الإمبراطور لاون الثالث وراحت محاولات وإرشادات البابا غريغوريوس الثاني أدراج الهواء. كما قام بطريرك القسطنطينة جرمانوس ضد الإمبراطور وحاول إفهامه أن الإكرام الذي يؤديه المسيحيون إلى الصور لا يرجع إلى الصور نفسها بل إلى المصورين فيها كما تُكرم صورة الملك. إلا أن الإمبراطور لم يكترث لهذه الاعتبارات ولا لقرارات المجامع الكنسية التي أخذت قرارات حازمة ضده، ومما لا شك فيه أن الإمبراطور كان مدعوماً ومؤيداً من أطراف كنسية أخرى وبالأخص من بعض الأساقفة الذين نبذهم الشعب بسبب أخلاقهم وممارساتهم في هذا الجانب. واستمر الحال على هذا المنوال حتى في زمن أبنه قسطنطين الخامس (٧٤١ – ٧٧٥) ومن ثم لاون الرابع (٧٧٥ – ٧٨٠). وخلال هذه المدة دارت حروب ضارية بين مؤيدي الإيقونات ومعارضيها، وذهب العديد من أبناء الكنيسة ضحية لهذا الصراع وحُطمت العديد من الآثار الفنية القيمة وذبح العشرات من الرهبان والأساقفة والفنانين وضاع أرث كنسي لا يقدر بثمن وعُقدت العشرات من المجامع الكنسية من الطرفين، هذا يحرم ذاك وذاك يحرم الطرف الآخر ويسخر منه، حتى أُجلست راقصة على عرش الإمبراطور في كاتدرائية (أيا صوفيا) في القسطنطينية استهزاءاً بالتماثيل والإيقونات التي في الكنيسة وبمن يكرمها، حتى جاءت الإمبراطورة ايرين كوصية للملك قسطنطين الخامس ناهية بذلك المرحلة الأولى من حكم عائلة الايسوري عام ٧٨٠م. إلا أن المشكلة عادت مرة أخرى بعد تولي لاون الخامس (٨١٣) الحكم ومن بعده ميخائيل الثاني حتى جاءت مرة أخرى زوجة الإمبراطور ثوفيلوس عام (٨٢٩ – ٨٤٢) وهي الإمبراطورة تيودورا كوصية على أبنها القاصر ميخائيل الثالث (٨٤٣م) وبذلك أنهت عهداً أثقل الكنيسة كثيراً فأُعيد الفن إلى رونقه واستوضح دلالاته ليخدم إيمان الناس كوسيلة وليس كغاية.

المصادر

1. إيضاح السبيل في ديجور البدع والأضاليل، المونسينيور عبد الأحد جرجي، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد 1926.

2. الفنون وحركة كاسري الإيقونات في العصر البيزنطي، فاضل شاكر، مجلة بين النهرين، ص 116-100، العدد 116-113، السنة (29)، بغداد، 2001.

التبشير بكلمة الله

إعداد: سليم كوكا

مقدمة

عادة ما يُثير موضوع التبشير ردود فعل متباينة في الأوساط الشعبية والرسمية والإعلامية في مختلف أنحاء العالم. بالنسبة إلينا كمسيحيين نعتبر عملية التبشير (Evangelisation) أو إعلان كلمة الله مسألة طبيعية وعادية كونها من صلب مهمات وواجبات كل مسيحي وبالأخص الإكليروس منهم إذ نستخلص من هذه الكلمة، أي التبشير، أننا نبشر باسم المسيح الذي هو مركز إيماننا وهو الذي دعا إلى التبشير بعدما باشر بها رسالته، كما يذكر مرقس الإنجيلي أن يسوع رجع إلى الجليل بعد اعتقال يوحنا معلناً بشارة الله ومُنادياً بها قائلاً: "حان الوقت وقد أقترب ملكوت الله فتوبوا وأمنوا بالبشارة" (١:١٤-١٥). والبشارة تعني الخلاص الذي أتى به يسوع لجميع البشر، وبعد قيامته عهد باستمرارية رسالته التبشيرية إلى رسله وأوصاهم أن يحفظوا هذه الوديعة في قلوبهم ويعملوا بها ويعيشوا لها وأن ينشروا مضامينها أينما ذهبوا حتى انقضاء الدهر (متى ٢٨:١٩-٢٠، مر ١٦:١٥، لو ٢٤:٤-٧، أع ١:٣). وفعلاً أنطلق هؤلاء ومن ثم إتباعهم إلى كل حدب وصوب وكانوا جديرين بالأمانة وشهوداً لها بالفعل والقول وبالدم، والكنيسة حتى يومنا هذا إذ تشعر بهذا الائتمان للوديعة المسلمة إليها ترى لزاماً عليها أن تجد السبل والأشكال المناسبة لتوطيد وتعزيز رسالة الإنجيل.

أما بالنسبة لغير المسيحيين فعادة ما تثير (كما أثارت عبر العصور) دعوات التبشير المسيحي قلقهم لا بل غضبهم، وهذه مسألة طبيعية كما لو كان أحد آخر يدعونا إلى معتقد أو مذهب آخر أفلا يزعجنا الأمر؟!.. نعم يزعجنا إلى حد رفض حتى الاستماع إليه، وما زاد غضب الجماعات غير المسيحية لكل إشارة تبشيرية هو التعصب والتصلب اللذان باتا من مقومات العصر في الآونة الأخيرة.

حركة التبشير الجديدة (The New Evangelisation)

أود ان ألفت انتباه قارئ هذه السطور، إلى أننا لا نعني بالتبشير الجديد الحركات الرهبانية والجماعات الكنسية المختلفة التي باتت منتشرة هنا وهناك، وخاصة في الأماكن المضطربة والساخنة بالمشاكل الداخلية والحروب، ولا نقصد أيضاً الحركات التبشيرية عبر التاريخ لأن هذا ليس موضوع بحثنا إطلاقاً. إلا أنه ما نعنيه اليوم هو ما كان قد دعا إليه الكاردينال جوزيف راتزنجر، البابا الحالي، وهو أن نعطي جواباً لكل فرد عن معنى إنسانيته: "كيف يتعلم الإنسان فن الحياة؟" (الكاردينال راتزنجر ٢٠٠٠). فالكنيسة متمثلة بالاكليروس والمؤمنين جميعاً مدعوة لأن تعطي جواباً للمعاصرين الذين يطرحون السؤال التقليدي المزمن: "ماذا صنعت أيتها الكنيسة بالإنجيل؟" (سيسبويه ١٩٧٥). إذ أحياناً تبدو الكنيسة لأول وهلة - على الأقل - على النقيض مما توحيه كلمة الإنجيل الذي يعني (البشرى السارة) على ما تتضمنه البشرى من قوة حياة وانفجار متجدد مما يجعلها (أي الكنيسة) جديرة أن تبدد روتين الشر المقنط والفقر المطبق بأشكال متعددة تفتك بالمجتمع البشري فتكاً ذريعاً. فالبشرى الإنجيلية الجديدة هي الولوج في عملية تحرير الإنسان والوعد بالملكوت وبعالم

متصالح فهي إذن انفتاح على المستقبل، على طيات الماضي مبتدءاً من ثنايا اليوم.

عند شروعه بالتبشير يقرأ يسوع: "روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشر الفقراء وأرسلني لأعلن للمأسورين تخلية سبيلهم وللعميان عودة البصر إليهم وأفرج عن المظلومين وأشفي منكسري القلوب" (لو ٤:١٨). فبهذا يعطي لنا المسيح ملخص بشارته الخلاصية، فهو يعني بذلك بأنه سيُرى البشر طريق الحياة ويعطي جواباً لسؤال الإنسان، سَيُريه طريق الحياة والسبيل إلى السعادة. أن أشد حالات الفقر لدى الإنسان هي عندما يشعر بالإحباط الأليم في عدم القدرة على تحقيق السعادة، هذا النوع من الفقر بات ينتشر بعدة أشكال بين الأوساط الغنية مادياً وفي البلدان الفقيرة على حد سواء. أن عدم القدرة على الفرح والسعادة تخلق مثيلتها في المحبة والأمل أي عدم القدرة على المحبة والأمل... وبذلك تخلق إنساناً حقوداً كئيباً وجشعاً ومتشائماً مليئاً بكل الشوائب التي تدمر حياة الفرد وما حوله، ومن هذا المنطلق ترى الكنيسة نفسها بأمس الحاجة إلى تبشير جديد ليس لمن حولها فقط، ولكن لنفسها أيضاً بنفس القوة أي ما يطلق عليه (التبشير من الداخل) وإلى إعادة برمجة الديناميكية الرسولية العفوية التي كانت تملأ المسيحيين الأولين غيرة على بيتهم (كنيستهم ومسيحهم). فمن الضروري قبل أن تكون إستراتيجيتنا التبشيرية مصممة ومدروسة نحو الخارج أن يكون التنوير في الداخل ليشع للخارج، فمهما فلسفنا المسألة التبشيرية تبقى الحياة اليومية إذن المحل العادي للرسالة والمسيحي هو المسؤول عن إيمان أو عدم إيمان الذين يلتقونه: "كل مؤمن معمد هو بالضرورة رسول فهو من وجد الحقيقة ولا يشعر براحة ولا يهدأ له بال حتى يشاركه من هو حوله" (سيسبويه ١٩٧٥). وبهذا يشترك الجميع بالعمل الخلاصي المتمثل بتحرير الفرد من عقدة (عدم القدرة على السعادة والمحبة) فأن أسعدك خبر الإنجيل أسعدت الآخرين وإن اكتشفت سر محبة (البشرى) أحببت حياتك ورضيت بها وأحببت الآخرين وقبلت بهم كما هم على حقيقتهم لا بل دعوتهم إلى مائدتك، مائدة السعادة والمحبة الإنجيلية (وما ينضح الأناء إلا بما فيه).

أن الكنيسة (بالرغم من اتهامات البعض بأنها مؤسسة شامخة ولكن هرمة تنظر باتجاه ماض غابر وتمثل تعليماً جامداً إن لم نقل متحجراً) لم تبخل جهداً في إعلان كلمة الله ولم تشوهه في تعليمها وما الاوخارستيا والأسرار التي تمنحها وأعمال المحبة فيها إلا

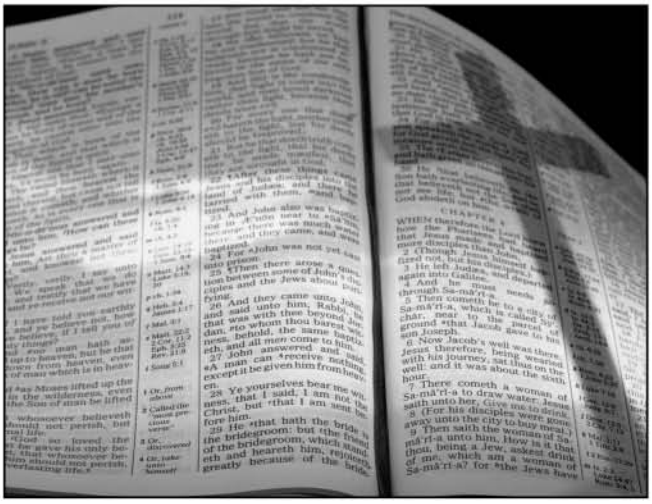

دليل على حمل الوديعة حتى آخر الأزمنة وهذه كلها تمنح الأمل لمن حولها.

خاتمة

البشرى الجديدة New Evangelisation حركة بدأت ملامحها في عهد البابا بولس السادس ١٩٧٥ تدعو فيها الكنيسة للانتقال من الكنيسة كمؤسسة (Church of Establishment) إلى كنيسة مُرسلة (Church of Mission)، إذ كان السعيد الذكر قد أشار إلى دور الحضارة البشرية في إيماننا المسيحي وعقبه البابا يوحنا بولس الثاني في خطابه أمام أساقفة أمريكا الجنوبية عام ١٩٨٣، إذ وضح أن (البشرى الجديدة) هي (الحماسة) في طريقة العمل والتعبير داخل الكنيسة وخاصة بعد أن نقبل تفاعل الإيمان مع حضارة الشعوب فلابد أن يثمران ثمراً يخدم هذه الشعوب وينتشلهم من (عبودية الفقر والمال). وكان قد أشار إلى هذه الحركة أيضاً في رسالته إلى كنيسة أوربا مذكراً أن الحركة الجديدة في التبشير تضع الكنيسة أمام مسؤوليتها التي لا يمكن أن تتهرب منها وهي التشخيص الشجاع لأمراض عصرنا والتي تمكنها أن تقرر العلاج المناسب على ضوء بشرى الخلاص التي أُودعت في أيدينا، مُضيفاً أن البشرى الجديدة تدعونا إلى أن نجعل صوت الرب مسموعاً وشامل الإدراك.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن مجمع الأساقفة المنعقد في روما للفترة ٥ تشرين الأول – ٢٦ تشرين الأول دعا مرة أخرى إلى تعزيز إعلان كلمة الله بما يخدم إنسان اليوم ومضى إلى أبعد من ذلك داعياً ليس فقط إلى إعلان كلمة الله (أي الإنجيل)، بل إلى (الإصغاء) إلى هذه الكلمة، وهذه سابقة لم نألفها في هكذا لقاءات من قبل، إذ أنها إشارة واضحة إلى أهمية قراءة الكلمة (الإنجيل)، والعمل بموجبها لكل المؤتمرين أولاً ثم لأبناء الكنيسة عامة، إذ صار إلى أن تتم قراءة الكتاب المقدس (العهد الجديد) على مدار الساعة من أوله إلى أخره لإعادة دور الكلمة الحيَّة وإعادة ديناميكية الإنجيل بفعل الروح القدس. والإصغاء إلى الإنجيل يعني السماع الواعي له قبل إعلانه وتوزيعه فهو ينفر بطبيعته من العزلة، وهو يكون بشرى أو لا يكون[1]..

الكنيسة إذن هي "جسم المحبة في الأرض.. لكن لا سبيل للمرء إلى امتلاك المحبة أن لم يرد أن ينشرها في العالم أجمع.. فما من منزل مغلق يستطيع أن يحتفظ بحرارة هذه المحبة.. والكنيسة لا تحيا إلا في روح عالمية، وبقول أخر: الكنيسة لا تحيا إلا مُرسلة" (سيسبويه ١٩٧٥). على هذا الشكل فهم بولس الرسول الأشياء: "إذا ما بشرتُ فليس ليَّ في ذلك مفخرة لأنها فريضة لابد ليَّ منها، والويل ليَّ إن لم أبشر" (١كور ٩:١٦).

المصادر:

1. سيسبويه، برنار. الإنجيل في الكنيسة. تعريب جرجيس المارديني، ط3، بيروت، لبنان: دار المشرق، 1997.

2. Cardinal Ratsinger, Joseph. The New Evangelisation. Part of a conference; 'Catechist in the Jubilee Year, Rome, 2000.

الراصد...
وجهة نظر

بقلم: سليم كوكا

لقد أصبح موضوع الشباب في الكنيسة هماً من هموم المجتمع، إذ بات البعض يخلطون بين ترددهم إلى الكنيسة وبين الالتزام الحياتي والأخلاقي والديني الذي من المفترض أن يكون حاصل تحصيل الأول حسب (فرضية البعض). أن الكنيسة بحد ذاتها لا تلزم أبنائها شيئاً لينفذوا شيئاً ما ولا تشترط على أحد شرطاً كي تحقق هدفاً ما من حيث المبدأ، فأنت لا تعلم ولن تعلم بدفء البيت ما لم تدخله في شتاءك القارص.. ولن تتغير مواقفك التي حكمت بها على الآخرين عن بعد ما لم تقترب منهم وعاشرتهم...الخ. هكذا كان حدسي بمجموعة شبابنا الأحباء الذين اصطحبتهم للمشاركة في أيام ملتقى الشباب العالمي في سدني (١٥ – ٢٠ تموز ٢٠٠٨). هذه المجموعة التي أدعو وأحث كل قارئ لمجلتنا الغراء إلى إعادة قراءة ما كتبوه عن خبراتهم الروحية الرائعة والثمار النقية التي جنوها من مشاركتهم عن كثب في هذا الملتقى. إذ تكتشف عزيزي القارئ في كتابات هؤلاء الشباب، بنين وبنات، معاني عميقة تثلج صدور قارئها ويمتلئ غبطة أمام تلك اللغة الشفافة في التعبير عن ما مسَّ كيان حياتهم. لقد اختبروا التعايش والألفة مع الكنيسة والمسيح متمثلة بمئات الآلاف من رفاقهم من كل أرجاء العالم وعلى طاولة المسيح يتصدرها قداسة بابا روما، فشعروا بنسمة محبة من علو وعاهدوا على أن يكونوا شهوداً للروح كما دعاهم شعار الملتقى، ليس شهوداً لبضعة أيام بل للعمر كله، نعم أن هناك من تراخت لوالبه (براغيه) بمرور الأيام إلا أنه من المنصف أن نقول أن الأغلبية عاد مملوءاً من الروح وثماره حتى عبق في أجواء رعيتنا وكانت هذه المجموعة سبباً لحماسة الكثيرين ومسيرتهم إلى الأمام بالرغم من كل الصعوبات والمعوقات... وما أروع أن ترى هؤلاء الشباب حتى اليوم يحومون حول مائدة القداس الإلهي كل يوم أحد (بالأخص القداس الثالث) وهم ممتلئون من تلك الروح التي تجمعهم وتشدهم إلى ما اكتشفوه في رحلة حجهم تلك وليكونوا مثالا لزملائهم وأخوتهم أينما كانوا.

في طريق عودتنا من سدني عشية الأحد (٢٠ تموز ٢٠٠٨) وبعد انتهاء فعاليات الملتقى ارتأى الجميع أن يدلوا بآرائهم حول مشاركتهم تلك وهنا لابد لي أن أفصح عن ما رصدته من آراء لهؤلاء الشباب حتى أولئك الذين لم أكن أتوقع منهم تعليقاً واحداً: "أن هذه كانت رحلة العمر وأنها ستلقي بظلالها على العمر كله وأن اشراقاتها الروحية ستمدنا بزوادنا الروحي دوماً" وعاهدوا أنفسهم (كما دعاهم قداسة البابا) بأن يكونوا شهوداً للكلمة دوماً. ورأيت فيهم حماستهم في الولوج في كل نشاط كنسي يخصهم وبالأخص أخوية الشبيبة (Alive in Spirit Youth Group). وفعلاً منذ ذلك اليوم نرى ثماراً شبابية يافعة تقدح نشاطاً وحيوية أزداد عدد المشاركين منهم في مجموعة الشباب ولقاءات مساء السبت وبالإضافة إلى مجموعة مساء الاثنين. وباتت مواضيع مهمة وحساسة تُطرح على طاولات نقاشاتهم ولقاءاتهم وكونوا لأنفسهم مجموعة صلاة (شبيبة الوردية المقدسة) يتلون صلاة الوردية باللغة الإنكليزية ويتأملون فيها قبل لقاء مساء السبت. بالإضافة إلى الكثير من النشاطات والمشاركة في المهرجانات التي تقيمها الكنيسة. وهنالك مشاريع مستقبلية بدءوا يرسمون لها بأنفسهم كلها تصب في خدمة حياتهم الروحية والمعيشية. وعودة أخرى إلى انعكاسات خبرة ملتقى الشباب العالمي على حياة وتصرفات المشاركين فيها ومفاجأة الأهالي بالتغيير الإيجابي الذي طرأ على حياة أبنائهم: "لقد عادت داليا وميري وماركريت ليس كما كنَّ، أنهن أكثر نضجاً وسعادة وأكثر تعاوناً ولم يعدن يضجرن من الأمور كالسابق، أنني أؤمن أن الروح القدس قد غير حياتهن.. أنني فخور بهن اليوم أكثر من أي وقت مضى" هذا ما قاله لي والد ثلاث أخوات اشتركن في الملتقى، وعلى هذه الشاكلة كانت أراء بقية الأهالي. وبهذا الخصوص لابد لي أن أشير إلى ما كان قد أتحفنا به أحد المطارنة

في إحدى محاضراته أثناء لقاءات الصباح متسائلاً ومجيباً على سؤال: "هل تعلمون لماذا يشعر معظم الشباب بالضجر من كل شيء ولا يستمتعون بشيء؟ ببساطة لأن ليس لديهم هدف ولا رسالة في حياتهم" وأضاف أيضاً: "من السهل أن نهتف أننا نحب المسيح الرأس بأعلى صوتنا ولكن ننسى أن للمسيح جسد وهو الكنيسة التي قد لا يعجبنا وضعها، ولكن هل نتجاسر أن نقول أننا نحب الجسد بالرغم من عيوبه وإشكالاته كما نحب المسيح الرأس، إن حققنا هذين المحورين نكون قد تعلمنا درساً أننا شباب نصبو للملكوت فيما بيننا". فعسى أن يكون شبابنا قد اكتشفوا معناً لحياتهم وعرفوا ما هي رسالتهم في الحياة بنعمة الروح القدس.

مداخلة

يوجه أحياناً عتاباً مفاده أنهم أحرار بإفراط أو صعبوا المراس أو ليسوا سهلي الانقياد، ولكن هل يمكن أن نعاتبهم إذا ما تميزوا في حياتهم بعدم خضوعهم للضغوط؟ أليسوا بذلك أبناء زمنهم؟ ليست الكنيسة عموماً لأناس يصغون ويسمعون بشغف وبدون رد فعل فحسب، بل لكل الفئات الشبابية التي تعبر عن مواقف تنم عن حرية داخلية عميقة، تلك الحرية المبنية على الطاعة لكرازة الخلاص وحرية الشباب هي مسار وطريق.. أنها حيَّة تنمو وتكبر وتتغذى داخل الكنيسة. نتحرر كشباب في البحث وفي إظهار الحقيقة، وتكتمل الحرية إذا ما أحببنا الناس (كل الناس) الذين نلتقيهم وما يلهم حرية الشباب داخل الكنيسة هو النعمة التي يقبلونها كما قبلوا دعوة الروح القدس في ملتقى الشباب وعليهم أن لا يتوقعوا أن يستلموا قوالب جاهزة لتساؤلاتهم بل المسألة تحتاج إلى تأني وطول مشوار من البحث والتلقين والدراسة.. وأن لا يتوقعوا فتاوي لحل العقد والتواطؤ مع السهل فالرسالة الموجهة لهم ومنهم هي إعلان الكلمة الحرة والمحررة. أننا نرى هؤلاء الشباب جياع إلى المعنى والحقيقة والتميز على ضوء الإنجيل. أن تربية شبيبة مسيحية مشغوفة بالكمال والنجاح في قلب عالم لا يتوقف عن الانزلاق في الوثنية مازالت تبدو وسيلة مفضلة وناجعة لإدخال المسيح في الرعية، وللتمكن من توقع مثل هذا المثل الأعلى لابد من التيقن في العمق بأن التربية والمتابعة هما مشروعان رسوليان في غاية الأهمية. ويتطلب العمل أيضاً إلى إثارة الميل إلى البحث وبذل الجهد، فالهدف من التردد إلى الكنيسة لا يقتصر على تكوين عقل الشاب، بل يشمل تكوين إرادته أيضاً، أن الشاب لا يكون ذات شأن ما لم يتشجع على العمل أن لا شيء يمكن الحصول عليه دون مشقة فإن أراد أن يكون ملتزماً أخلاقياً وأدبياً ودينياً وجب عليه أن يدخل في معارك كبرى وينتصر على أعداء باطنيين يعاشرهم ساعات طويلة في حياته وفي مدرسته وفي محيطه.

أننا فخورون بهذه الديناميكية الشبابية التي توغلت في كنيستنا ونرتاح لها ونعتبرها من الجوانب الإيجابية التي غالباً ما يركز عليها دستور الكنيسة الكاثوليكية ويشد من آزرها كل من يرصد الأمور ويتطلع عليها. وعلى عاتق الأكليروس والأهالي والمربين يقع واجب تعضيد كل عمل شبابي يخدم أبناءنا وبناتنا ويجعل من كنيستنا شابة بروادها وفكرها، كل ذلك كي يخدم الهدف الأساس وهو أن نعرف الله معرفة أعمق. كي نحقق هذه المعرفة لابد أن نحث أنفسنا كأهل ومربين ونحث شبابنا على أن نخصص وقتاً له (أي لله) ووقتاً متميزاً ليس كبقية الأوقات التي نقضيها هنا وهناك. فإذا أردنا إقامة علاقة محبة شخصية معه، علاقة مباشرة بلا وساطات، علينا أن نجازف بخوض اللقاء الشخصي فيبدو أن الله ينتهز كل الفرص ليقترب منا. إذن قد يفتح لنا الطريق من خلال الأشخاص الآخرين والمطالعات والمهرجانات ولكن شرط أن لا نتوقف عند الأشخاص والمهرجانات واللقاءات هذه، فليس هؤلاء وليست هذه إلا وسائط نصل من خلالها إلى لقاء مباشر بالمسيح كي نكون هياكل للروح القدس وملحاً للأرض وخميرة للمجتمع وشموعاً تحترق لتنير دروب الآخرين.

اللاهوت المريمي

بقلم: سليم كوكا

أن الكلام والأقوال والكتابات عن شخص العذراء مريم قد فاق الكلام والأقوال والكتابات عن أي شخصية كتابية على الإطلاق باستثناء الرب يسوع، وها نحن اليوم أمام دراسات أخرى تخص هذه الشخصية الفريدة والعجيبة التي تسترعي انتباه السائر في بلاد الغرب والشرق - حتى في الأماكن التي يكون فيها المسيحيون قلة - بعدد الكنائس والمزارات المكرسة لها، بعضها يعود إلى أقدم الزمان وبعضها الآخر حديث العهد وهذا دليل واضح على ما يكنه مسيحيو الشرق والغرب أكاثوليك كانوا أم أرثوذكسيين لهذه السيدة العذراء من التعلق وما يولونها من الثقة؟

ترتبط هذه المظاهر ارتباطاً وثيقاً بالطقوس التي نعرفها من أعياد السيدة العذراء وهي على مدار السنة الطقسية وإيقونات وتماثيل قائمة في الكنائس والصوم الاستعدادي لـ (عيد الانتقال) وهو أول عيد طقسي انشأ لإكرام سر السيدة العذراء وكان يُدعى (يوم مريم والدة الله) واحتفل به منذ القرن الخامس في أورشليم في اليوم الخامس عشر من آب وحتى يومنا هذا «وهو يُعتبر من الأعياد الأكثر قدماً في طقسنا الكلداني» .

روحانيات ولاهوت

تشكل المزارات والليتورجيا أهم قطبين عمليين في ممارسة شعائر الديانة المسيحية يعود أحدهما إلى إكرام المسيحيين الشعبي والآخر إلى شعائر الدين الرسمية التي تقوم بها الكنيسة لعبادة الله، وكل من هذين القطبين يُظْهِر بجلاء المكان الذي تشغله العذراء في حياة المسيحيين وحياة الكنيسة فنستنتج من هذا أن علم اللاهوت المريمي يبدو لنا قبل أن يكون محض دراسات ومناقشات ومجادلات نظرية أنه مجال واسع للحياة الروحية يُعطي أفقاً للصلاة الكنسية التي هي تعبيراً عن إيمانها وازدهاره. فإكرام العذراء في الكنيسة (شريعة الصلاة) مؤسس على الإيمان (شريعة الإيمان) هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فأن اللاهوت المريمي يعود إلى علم اللاهوت الرعائي أكثر منه إلى اللاهوت العقائدي. لقد كتب البابا الراحل بولس السادس: «أن التقوى لأم الرب تصير للمؤمن مناسبة للنمو في النعمة الإلهية.. وهذه هي الغاية النهائية لكل عمل

رعائي» (البابا بولس السادس، روما ١٩٧٤) وتشير الرسالة أيضاً إلى: «أن الخاتم النهائي والسبب الأخير اللذين يبرران القيمة الرعائية لإكرام السيدة العذراء لكي يقود الناس إلى المسيح، نستمدها من تلك الكلمات التي قيلت للخدم في عرس قانا الجليل (مهما قال لكم فافعلوه)». لذا فالهدف من كتابة هذه الأسطر وما يُكتب عن العذراء مريم هو الكشف عن إيمان الكنيسة الذي يجب أن يُوجِّه ويَحفظ في الحقيقة الإلهية اتجاه صلاة المؤمنين وتعميق شريعة الإيمان لتوجيه صلاتهم وحفظها من كل إفراط وانحراف إذ باتت هذه من مشكلات الكنيسة الحالية. لذا من الواجب إنارة حياة المؤمنين الروحية في الاتجاه الذي يخدم إيمانهم بعيداً عن المبالغات والتصورات السحرية التي تُبعد (الديانة الشعبية) الأصيلة والمُلْهمة من شخص العذراء مريم عن خصوصيتها الرائعة الهادفة. لقد أكد المجمع الفاتيكاني الثاني في الدستور العقائدي (نور الأمم) على ضرورة وضع تعليم الكنيسة المريمي في إطاره العقائدي الصحيح: «أن المجمع المقدس يحث بحرارة اللاهوتيين والذين ينشرون كلمة الله على أن يمتنعوا أيضاً، بالتأني الشديد، عن كل مقالات مضادة للحقيقة وعن قصر في النظر غير مبرر عندما يتكلمون عن الكرامة الفريدة التي لأم الله، ففي دروسهم عن الكتاب المقدس والآباء القديسين والملافنة وطقسيات الكنيسة بقيادة السلطة التعليمية يجب أن يُظهروا بجلاء دور الطوباوية العذراء وإنعاماتها الموجهة دوماً نحو المسيح ينبوع الحقيقة الكامنة والقداسة والتقوى» (الدستور العقائدي، روما).

أن الروحانية المريمية واللاهوت المريمي يشددان على إدراج العذراء مريم في تدبير الخلاص، فهذه الروحانيات تملأ فضاءات الكنيسة بمعاني الصلاة العميقة، أما هذا اللاهوت فيكشف سر مريم أم الله في حقيقته كلها إذ لا يكون لاهوتاً هامشياً مفصولاً عن سائر علوم اللاهوت.

تيارات اللاهوت المريمي

كثيراً ما يعتقد أن اللاهوت المريمي هو علم خاص له استقلاله الذاتي وهذا هو الخطر في هذه الدراسة. لقد كتب الأب رينيه لورنتان نقلاً عن اللاهوتي بنوفوا: «ليس علم اللاهوت

المريمي علم له استقلال ذاتي ولا علماً خادماً لعلم اللاهوت أو الوحي الإلهي بل جزءاً لا يتجزأ من علم اللاهوت كما أعلن مار توما الأكويني. ليس لعلم اللاهوت المريمي ولا يمكن أن يكون له إلا مبادئ علم اللاهوت نفسه... البحث في علم اللاهوت المريمي على أنه علم له استقلال ذاتي يعني، إنْ شئنا أم أبينا، تحطيم وحدة علم اللاهوت» (لورنتان ١٩٧٦).

أن كل التيارات تنطلق في دراستها لعلم اللاهوت المريمي من عدة محاور نوجز أربعة منها على الشكل التالي:

١. الامتيازات التي حظيت بها العذراء مريم (مباركة أنت في النساء) واختيار الله السابق لها منذ أن كانت في فكر الله. ويرى أهل هذا التيار أنه يجري البحث عن المبدأ الأعلى في كون مريم أم الله (ثيوطوقوس) أو بحث عنه في كون مريم حواء جديدة أشركت في أدم الجديد في كل شيء، لذا يليق بها أن تكون بلا دنس منذ الحبل بها ورفعها إلى السماء بجسدها ونفسها منذ نهاية حياتها الفانية لبقاء كرامتها. فأن كان المسيح فادياً فهي شريكته في الفداء، وإن كان وسيطاً فهي وسيطة جميع النعم... الخ. وهذا اتجاه مسيحاني مثالي.

٢. الانطلاق من الكنيسة باعتبار العذراء مريم عضو منها فهي داخل الكنيسة وأول من نال نصيباً في الخلاص أنها شأن جميع البشر، خليقة بشرية ولكن أجمل الخلائق التي قدسها الروح القدس أكثر من كل خليقة، وهذا اتجاه كنسي مثالي.

٣. التيار الثالث وقد ظهر بعد المجمع الفاتيكاني الثاني متأثراً بالحركة المسكونية والعلاقات البروتستانتية والتيارات المعاصرة وهو يرد على مبالغات التقوى لإكرام مريم على أنها قليلة الوعي، ويفرط أصحاب هذا التيار في الطريقة التفسيرية التاريخية النقدية فكما أن تياراً مسيحانياً معاصراً يُشدد تشديداً كبيراً على ناحية المسيح البشرية حتى أن الأقنوم الإلهي يبدو قليل الظهور فيه جداً، هكذا يُقلل دعاة هذا التيار من القيمة التاريخية لأناجيل الطفولة ليجعل منها قصة أسطورية فلا تكون العذراء مريم عندهم سوى امرأة عادية أولاها إيمان الجماعة المسيحية طابعاً مثالياً.

٤. الاتجاه الأخير في بحثنا هذا يُظهر صلة مريم بالتدبير الخلاصي فلا معنى للامتيازات التي أغدقها الله عليها إلا بالنظر إلى مسيح هو مركز هذا التاريخ الخلاصي وغايته ولا معنى لها إلا بالنظر إلى جسد المسيح والذي هو الكنيسة وهو يواصل هنا عمل الخلاص بواسطة الروح القدس.

يدعو المجمع الفاتيكاني الثاني إلى اتجاه متوازن في دراسة علم اللاهوت المريمي دون فصله عن بقية علوم اللاهوت ويكشف برجوعه إلى أقدم تقليد عند الآباء القديسين إلى أهمية الروح القدس في الخطة الإلهية فيستنتج منطقياً أن اللاهوت المريمي يصب هو الآخر في هذا المجرى أيضاً كون شخصيته (أي السيدة العذراء) ظلّلها الروح القدس... وأبرز المجمع أيضاً كما هو معلوم لدى ختامه للدستور المختص بالكنيسة بفصل عن مريم في (سر الكنيسة) مفاجئاً أباء المجمع الذين كانوا يتمنون وثيقة مجمعية خاصة بمريم العذراء فجاء الاقتراع الأخير مؤيداً لدمجها في الدستور الخاص بالكنيسة مُعطياً دليلاً على أن آباء الكنيسة يرون في مريم (صورة الكنيسة) و(صورة الإنسان المؤمن) الذي لا يستطيع أن يحقق ذاته تحقيقاً تاماً إلا بعطية المحبة وهي ما يسميها علم اللاهوت (النعمة). المسيح هو العطية الموهوبة ومريم هي العطية المقبولة.

وأخيراً، لابد من القول أن اللاهوت المريمي هو دراسة ممتعة وبحث يراعى فيه تفاسير الآباء القديسين وتقليد الكنيسة والحقائق العقائدية الإيمانية بشكل متزن طارحاً كل ما له وما عليه وليس حكراً على كنيسة معينة. وهناك فرق بين اللاهوت المريمي والمريميات القائمة على الصلوات التقوية الخاصة بالعذراء مريم.

فقالت مريم:

«تُعظّمُ الربّ نفسْي وتَبتَهجُ روحي بالله مُخَلّصي لأنّه نَظَرَ إلى أمتَه الوَضيعة. سوف تُهَنّئني بَعدَ اليوم جميعُ الأجيال لأنّ القَدير صَنَعَ إليّ أُموراً عظيمة: قُدُّس اسمهُ ورَحمتَهُ من جيلٍ إلى جيل للّذينَ يتّقونَه. كَشَفَ عَن شدَّة ساعده فشَتَّتَ المتُكَبّرينَ في قُلوبهم. حَطَّ الأقوياءَ عن العُروش ورفَعَ الوُضَعاء. أشبَعَ الجياعَ منَ الخيرات والأغنياءُ صرَفَهم فارغين. نَصَرَ عَبدَه إسرائيل ذاكراً، كما قالَ لآبائنا، رَحمتَهَ لإبراهيم ونَسْله للأبد».

المصادر:

لاتور، الأب أوغسطين دوبرا. خلاصة اللاهوت المريمي. ترجمة: الأب يوسف قوشاقجي. ط٣. بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٢.

البابا بولس السادس. الارشاد الرسولي (إكرام مريم). الفاتيكان، ١٩٧٤.

فاريون، الأب فرانسوا اليسوعي. فرح الإيمان بهجة الحياة. ط٨. دار المشرق: بيروت، ٢٠٠٥.

السنة اليوبيلية المكرسة للكهنوت

إعداد: سليم كوكا

مقدمة

أن أول ما يتبادر في ذهننا حينما نذكر مصطلح الكهنوت في الوقت الحاضر كلمة (الكاهن) أو صورة شخص ما التقيناه في مرحلة ما من مراحل حياتنا أو نلتقيه الآن وهو ما نسميه اليوم بـ (أبونا) الفلاني أو الكاهن العلاني. وغالباً ما نقيم معاني المصطلح التاريخي العميق للكهنوت حسب نظرتنا إلى هذا الكاهن – الأبونا أو ذاك. في هذا المقال أدعو القارئ العزيز إلى السير معي إلى سبر غور مفهوم الكهنوت باختصار شديد منذ النشأ الأول وحتى هذا العام الذي أعتبره قداسة بابا روما (عام الكهنوت) مروراً بمفهوم كهنوت المسيح الذي لا يمكن أن يُفهم ما لم نتعرف على الكهنوت في العهد القديم ثم طريقة توارثه من قبل الرسل.

نبذة تاريخية

كانت للشعوب المحيطة بشعب إسرائيل كشعوب ما بين النهرين ومصر نظام كهنوتي وراثي – عائلي يرأسه الملك الذي يساعده مجموعة من الكهان كانوا يتولون الوظائف الطقسية المقدسة التي تخدم الإله وترضيه لا بل كانت لسان حال الآلهة بوصفهم عرافين وعلى هذا المبدأ نشأ تدريجياً مفهوم الكهنوت لدى شعب إسرائيل على أعقاب كهنوت الكهنة الغرباء كـ ملكيصادق (الكاهن – ملك شاليم) الذي بارك أبرام حسب تكوين (19-18:14). إذ نرى أن موسى بعد أن أرخى هارون عنان الشعب ليعبد العجل يُعطي بركته لأحد الأسباط وهو سبط لاوي الذي كان حتى تلك الفترة قبيلة عادية لا تقوم بأي وظيفة مقدسة وبهذه البركة مُنحوا السلطة على إدارة الأمور الدينية والمهام الخاصة بالكهنة (تث 11-8:33) وبجانب كهنوت اللاويين المكّون هذا نرى الكهنوت العائلي قائماً أيضاً (قض 25-18:16) وحتى الملوك كانوا أحياناً - وإن لم يكونوا من الطائفتين – يقومون بوظائف كهنوتية وأضحت طبقة الكهنة مؤسسة ذات مكانة خاصة تأثرت بالتيارات السياسية والسلطة حتى دمار الهيكل الذي أنهى الوصاية الملكية على الكهنوت وأتاح له سلطة أكبر على الشعب (587 ق.م.). وحدثت فيما بعد انشقاقات في هذه المؤسسة كالذي أعلنته مجموعة قمران الكهنوتية. إلا أنه منذ زمن الملك هيرودس أصبح تعيين رؤوساء الكهنة واختيارهم من أسر كهنوتية شهيرة يتم من قبل السلطة السياسية. وهذه التعيينات أنجبت مجموعة (رؤساء الكهنة) الذين نسمع عنهم مراراً في الإنجيل.

نحو كهنوت كامل وشعب كهنوتي

ظل كهنوت العهد القديم في أغلبيته أميناً على رسالته بالرغم من تلعثمات الزمن وتأثيراته وحاول أن يحمل التراث المسلَّم إليه بأمانة. وتفيدنا الخبرة عبر التاريخ إن الإنسان بقواه الذاتية غير قادر على حمل هذه الأمانة لذا يضع الشعب رجاءه في الله عينه الذي يستطيع أن يحقق الكهنوت الكامل في اليوم الأخير وينتظر الجميع الكاهن الأمين بجانب المسيح ابن داود (زكريا 13-12:6). إذ نؤمن بأن قيم العهد القديم لا تأخذ معانيها إلا في يسوع الذي يُتمِّمها متسامياً عليها بالرغم من أن يسوع لم ينسب ولو مرة واحدة إلى نفسه لقب الكاهن لإدراكه أن هذا اللقب يضع مهمته في بيئته في أطار محدود وضيق. والواقع أن يسوع يدرك أن عمل رسالته يختلف كل الاختلاف عن عمل كهنة زمانه لما فيها من اتساع وابتكار فيفضل أن يسمي نفسه (الابن) مستعملاً اصطلاحات كهنوتية بحسب طريقته المألوفة فأصبح كهنوته في كيانه وسيطاً مثالياً في العهد الجديد معتبراً شعب هذا العهد الجديد شعباً كهنوتياً بالرغم من عدم نسبه صفة الكهنوت إلى أتباعه كما لنفسه. ولا نجد في العهد الجديد أي إشارة تنسب إلى أي مسئول في الكنيسة صفة الكاهن إلا أن إشراك

يسوع لأتباعه في كهنوته حينما يعهد للاثني عشر إدارة كنيسته واقتسامه الاوخارستيا في العشاء الأخير إشارة ضمنية منه إلى رسله لأن يواصلوا عمله الكهنوتي أيضاً، ووعى الرسل ذلك لذا عينوا مسئولين لأن يواصلوا عملهم بعدهم وحمل هؤلاء لقب (الشيوخ) الذي هو أصل الكلمة الحالية للكهنة (Presbyters) ومنحوا ألقاباً كهنوتية منها (وكلاء أسرار الله) و (خدام العهد الجديد)...الخ (1 كور 1:4-2). وأصبحت البشارة بالإنجيل ورسالته (خدمة كهنوتية) أو (كهنوت الخدمة) دون أن تتعارض مع كهنوت المسيح الوحيد الذي تم توارثه بوضع اليد (الرسامة الكهنوتية) من الرسل وحتى يومنا هذا. وبذلك كانت نقطة انطلاق الكهنوت المكرس (الأساقفة، الكهنة) وكهنوت المؤمنين دون تسلط الواحد على الآخر إلا من حيث الخدمة.

السنة الكهنوتية

اعتادت الكنيسة الكاثوليكية في السنين الأخيرة على الاحتفال والتذكير بمناسبة أو حدث مهم في حياتها ومسيرتها وذلك بتكريس سنة كاملة لذلك الحدث ليكون دافعاً لإنعاشه وإشعار المؤمنين بمدى أهميته. فكانت على سبيل المثال سنة 2000 مكرسة للثالوث الأقدس والسنة الماضية السنة اليوبيلية المكرسة للقديس بولس[1] الذي جاء بمناسبة الذكرى الألفين لولادة رسول الأمم، وفي هذا العام وبالتحديد بتاريخ 19 حزيران 2009 (في عيد قلب يسوع الأقدس) افتتح قداسة البابا بندكتس السادس عشر (سنة الكهنوت) مخصصاً بذلك عاماً كاملاً للصلاة من أجل الدعوات الكهنوتية والرهبانية ودور الإكليروس في حياة الكنيسة الكاثوليكية. ولم يكن إعلان هذا العام اعتباطاً وفي هذا اليوم بالذات، بل جاء متزامناً مع الذكرى المائة والخمسين لوفاة القديس جان مار فياني المعروف بـ (خوري آرس)[2]. ذلك الرجل الفلاح والكاهن الورع. الذي عاش آبان الثورة الفرنسية 1789 والمنحدر من عائلة فلاحية فقيرة حيث رأى بأم عينيه وهو شاب في مقتبل العمر ما نالت الكنيسة من التخريب والاضطرابات والاضطهاد بسبب الثورة، وتعرض الأساقفة والكهنة إلى التنكيل والإعدام بالمقصلة. لذا ناضل بكل ما يمتلك من حب للكنيسة من أن يعيد الذين تركوا الإيمان ويهديهم إلى صوابهم بتواضعه وزهده وتقشفه. لم يكن السبيل إلى الكهنوت سهلاً إذ لم يكن يمتلك ذهناً فلسفياً ولاهوتياً كفلاسفة زمانه وصعوبة تعلمه إلا أنه أستطاع أن يجعل من القادمين إليه أن (يشاركوا حياة الله) بصلاته والساعات الطويلة التي كان يقضيها على كرسي الاعتراف يستمع للقادمين إليه من جميع أرجاء فرنسا، وفي عام 1929 أُعلن شفيعاً لكهنة الكنيسة الكاثوليكية. لقد خص قداسة البابا بندكتوس السادس عشر الحاضرين في افتتاح (السنة الكهنوتية) بعظة قيمة أشار فيها إلى دور هذا القدوة (خوري آرس) الذي أستطاع أن يجعل من مدينته آرس، القريبة من ليون في فرنسا، مزاراً يحج إليه الآلاف من جميع أرجاء العالم وكان لكاتب هذه الأسطر فرصة زيارة مكان إقامته في السنين الأخيرة. هناك يشعر الزائر بمدى سخاء وتفاني هذا الرجل المتواضع في اجتذاب الناس بإخلاصه لرسالته وصراعه العنيد ضد الشيطان الذي جاء وأحرق حتى سرير فراشه وشواهد ذلك الحدث قائمة هناك. لقد دعا قداسة البابا جميع الكهنة للاقتداء بقلب شفيعهم الملتهب بالمحبة الإلهية الذي كان يتأثر بفكرة كرامة الكاهن ويخاطب المؤمنين بتعابير مؤثرة وسامية وعلى أثر تفانيه أجرى الرب على يديه أعاجيب كثيرة كانت مثاراً للجدل وطريقاً للبسطاء نحو إيمان قويم.

خاتمة

أن إعلان سنة الكهنوت من قبل حاضرة الفاتيكان في هذا الوقت بالذات له دلالات عميقة وكثيرة إذ تشعر الكنيسة بأزمة تكاد تخنقها من حيث الدعوات وهناك حاجة ماسة لفعلة حقيقيين في حقل الرب. وكما أن هناك شعور بمدى حاجة الكنيسة اليوم وأكثر من أي وقت مضى إلى تكاتف كلا التيارين – الكهنوت المكرس والكهنوت العام – لإنعاش روح الإنجيل في عالم اليوم المليء بالتحديات والتناقضات. فالكاهن ذلك الإنسان المفوض من قبل الكنيسة للخدمة شأنه شأن الكثيرين من ذوي المسؤوليات في الوقت الحاضر يعيش في زمن المتغيرات الثقافية والاجتماعية والمستجدات العلمية والمعلوماتية؛ فلا يرضى لنفسه أن يكون تلك الصورة الثابتة التي أعتدنا عليها، بل صورة متحركة مليئة بطموحات الكنيسة التي يخططها الروح القدس الذي يملأ كيان خادم الأسرار ويحرك رسالته باحثاً دائماً عن الجديد والمفيد والمغذي والجدي وجاعلاً من المتناقل والمتوارث من الطقوس والقوانين حلقة تربط الماضي بديناميكية الحاضر وانفتاح المستقبل. أن الكنيسة اليوم تعي مدى حاجتها إلى الدعوات الكهنوتية والرهبانية المكرسة لتحمل هذه الرسالة والأمانة يداً بيد مع كهنوت المؤمنين الذين يتوجب عليهم أن يعوا أيضاً ويدركوا أن رسالة (سنة الكهنوت) موجهة إلى كل أعضاء جسد المسيح الذين يشاركونه كهنوته العام وما على الجميع إلا حفظ الوديعة والمواظبة على القراءة والوعظ والتعليم (1 تيم 13:4) لتكون الكنيسة شاهدة حيَّة لكهنوت المسيح ورسالته في عالم اليوم.

المصادر

- معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، الطبعة الثانية، بيروت، 1986.
- الكتاب المقدس، الطبعة الكاثوليكية، دار المشرق، بيروت، 1986.
- عظة البابا بندكتس السادس عشر: بمناسبة افتتاح السنة الكهنوتية، مكتبة النشر الفاتيكانية، 2009.
- لمنو، عوديشو. مقالة: سنة اليوبيل المكرسة للقديس بولس الرسول. نوهرا، العدد 51، نيسان، ملبورن، 2008.